القطة تابسا

اسم الكتاب	:	القطة تابسا
تأليف	:	عبد الباقي يوسف
التصنيف	:	رواية للأطفال من عمر 9 إلى 12 سنة
مراجعة لغوية	:	راما الخطيب
إخراج فني	:	أسماء أبو المجد
تصميم الغلاف	:	أحمد وهبة
رقم الإيداع	:	2024/11888
الترقيم الدولي	:	978-977-8769-32-6
الطبعة	:	الأولى 2024
الناشر	:	اسكرايب للنشر والتوزيع

للتواصل معنا

scribe20199@gmail.com

+201005079256

+201099727510

دار اسكرايب للنشر والتوزيع

SCRIBE
اسكرايب
للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©
لدار اسكرايب للنشر والتوزيع
لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة
بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

القطة تابسا

رواية للأطفال

للأعمار من 9 إلى 12 سنة

تأليف

عبد الباقي يوسف

اسكرايب
للنشر والتوزيع

الفصل الأول

هديَّة النجاح

سوف يقضي باسم هذه الليلة في البيت وحيداً بسبب ذهاب أبوَيه إلى القرية لعيادة جدَّته المريضة.

قالَ له أبوه وهو يربت على كتفه: كن على حذرٍ يا باسم، لا تفتح الباب لأحَد، وعندما ترجع مِن المدرسة لا تترك الباب مفتوحاً، أغلقه جيِّداً يا بُنَي. لن نتأخَّر كثيراً، سنعود مساء يوم الغد.

قالَت أمُّه: لا نريد أن تنقطع عن دراستك، وإلّا لأخذناك معنا. أعددتُ لك الطعام ووضعته في البرّاد، لا تنس أن ترتدي كنزتك الصوف السميكة، وتضع الوشاح حول رقبتك، الطقس شديد البرودة يا بُنَي.

هزَّ باسم رأسه بالإيجاب وقد عَلَت غصَّةٌ إلى حَنجَرته لأنَّها المرَّة الأولى التي سينام فيها لوحده في البيت وقد بلغ العاشرة مِن عمره.

كانَت أمّه وهي تتهيّأ للخروج، كثيرة القلق عليه بسبب استخدامه الطويل للإنترنت إلى درجة أنَّه في الآونة الأخيرة أضحى يُعاني مِن تشنّجاتٍ في رقبته، وبين بُرهةٍ وأُخرى

يُحرّك رأسه شطر اليمين وشطر اليسار، يمدّ كفَّه إلى الخلف، يدلّك بِها رقبته، وتلبث نظراتُه معلَّقة في شاشة الهاتف الذي يحمله بكفّه الأُخرى.

ترمقه أمّه بنظراتِها وتندم على تلك اللحظة التي طلبتْ فيها مِن أبيه أن يبتاعَ له هاتِفاً بمناسبة نجاحه من الصف الثالث الابتدائي إلى الصف الرابع.

كانَت فكرة الهاتف قد خطَرَت لباسم لأوَّل مرَّة عندما أخذته أمّه معها في السنة الفائتة إلى بيت خاله، وأمضت يومَين هُناك.

وخلال اليومَين كان باسم يمضي الوقت مع أولاد خاله الذين كانوا يتبارون بالألعاب الالكترونيّة على هواتفهم.

كان ينظر بدهشةٍ كيف أنَّهم أتقنوا استخدام الإنترنت، يتنقَّلون بين مواقع الألعاب، يتضاحكون، فيضحك معهم وهو يُشارِكهم المُشاهدة ويتخيَّل أن يمتلك هاتفاً.

لدى رجوعهما إلى البيت، قال لأمّه: أريد أن يشتري لي أبي هاتفاً حتى أتسلّى بالألعاب الإلكترونية في أوقات فراغي.

قالَت: هل أعجبَتكَ ألعاب أولاد خالك؟

هزَّ رأسه عدّة هزَّات إلى الأسفل وقال: كثيراً يا أمّي.

قالَت: أعدكَ بأنَّني سأطلب من أبيك أن يشتري لك هاتفاً، لكن ليس الآن يا بُنَي، انتظر حتى تنجح وعندها ستكون مناسَبة كي يكون الهاتف هدية نجاحك.

انشرح صدر باسم وهو يسمع ذلك من أمّه، فأردفت تقول: أريد منك الآن أن تركّز على دروسك جيّداً يا باسم حتى تكون الأوَّل في صفّك.

نظر إليها مُبتسِماً وقال: حاضر يا أمّي.

دخل باسم إلى غرفته، تخيَّل بأنّه سيحرز علامات مرتفعة وينجح بتفوَّق، يحمل وثيقة النجاح إلى أمّه قائِلاً لها: ها قد نجحتُ يا أمّي. فتطلب من أبيه أن يبتاع له هاتِفاً كهديّةٍ لنجاحه. تخيَّل الهاتف بينَ يدَيه، يتسلّى بالألعاب، يتقن استخدام الإنترنت كأولاد خاله.

مضت الأيام والشهور وأمّه تُلاحظ نتائج دراسته عندما تُراجع معه الدروس، فتشعر بدهشةٍ وهي تراه يحفظ الدروس دون أن يقع في أخطاء كما لو أنّه ليس باسم الذي كانت تبذل معه جهداً حتى تجعله يتجاوز الأخطاء التي يقع فيها. وليست أمّه فحسب، بل إن أساتذته أيضاً لاحظوا هذا الانتقال المُفاجئ له من تلميذٍ عادي إلى تلميذٍ متفوّق بامتياز.

عندما انتهت السنة الدراسية، أحسّ باسم بالفرحة تغمره وهو يسمع الأستاذ يقول له: مُبارَك يا باسم.. نجحتَ بدرجة ممتازة جداً، أنت الأوّل على الصف. شَكَرَ الأستاذ، أخذ الوثيقة واتجه إلى البيت مسروراً وهو يتهادى في مشيته.

قرأت أمّه الوثيقة وقبّلته قائلةً: مُبارَك يا بُني، أدخلتَ الفرحة إلى قلبي.

نظر إليها، فأدركت من نظرته بأنّه يُذكّرها بالهاتف. التفتت إلى أبيه الذي كان ينظر إلى الوثيقة مسروراً وقالَت له: أريد أن تشتري له هاتفاً بهذه المُناسبة يا أبا باسم، سوف يتسلّى به في العطلة.

قال أبوه وهو يقبّله: باسم الذي أفرحني اليوم بتفوّقه في الدراسة، يستحق هذه الهدية.

في اليوم التالي وبعد الانتهاء من عمله، اتجه أبو باسم إلى سوق المدينة وابتاع هاتفاً ثم عاد إلى البيت. كان باسم يعدّ الساعات في انتظاره، وعندما اقترب موعد رجوعه، خرج إلى الشارع، وقف على الرصيف أمام البيت.

لاح له الباص من ناصية الشارع، خفق قلبه وتعلقَّت نظراته به، تقدَّم الباص حتى توقَّف قبالة باب البيت. وما إن ترجَّل أبوه من باب الباص حتى هرع إليه، تناول من يده

الهاتف قائلاً: شكراً يا أبي. وهو لا يكاد يُصدّق بأنّه بات يمتلك هاتفاً، وسوف يمضي أوقات فراغه بالألعاب الإلكترونية.

بعد تناول الغداء وأخذ قيلولةٍ، أرشده أبوه إلى التعليمات الأوليّة لاستخدام الهاتف وكيفيّة الدخول إلى مواقع الألعاب.

مع الأيّام غدا باسم يتعرَّف على عالم الإنترنت وبين حينٍ وآخَر يسأل أحد أبوَيه، أو يُهاتف أحد أولاد خاله لمعرفة استخدام بعض المزايا التي لا يعرفها.

عند ذاك لاحظ أبواه بأنَّه غدا يمضي كل وقته على الإنترنت، سواء أكان جالِساً معهما، أو عندما يكون في غرفته، أو حتى عندما يجلس في حاكورة البيت، فيأخذ معه الهاتف ويبقى مُنهَمِكاً في الشاشة.

حينها قال أبوه مخاطِباً أمّه: غداً عندما تُفتَح المدرسة، سينشغل بدروسه وينسى الهاتف.

واستناداً إلى هذا التوقّع، تَرَكاه دون أن يتدخلا، لكن عندما فُتحَت المدرسة بعد ثلاثة أشهرٍ مِن العطلة الصيفيَّة، لبث باسم على ما هو عليه من الانشغال بالهاتف طوال وجوده في البيت، ولا يتركه إلّا عندما يذهب إلى المدرسة. مضى الشهر الأوّل من العام الدراسي، ثم تبعه الشهر الثاني وما يزال

باسم متعلِقاً بالإنترنت، بل لم يعد يولي دروسه اهتماماً، ولاحظت أمّه المستوى الدراسي الضعيف الذي آل إليه. وبدأت تُلاحظ ميله الشديد إلى العزلة، حتى عندما تدخل إلى غرفته، ينتابها شعورٌ بأنّها دخلت في وقتٍ غير مناسب، لأن كل أوقاته بدت بالنسبة إليها غير مُناسِبة. والأكثر مِن ذلك أنّها عندما تُناديه، لا يستجيب بسرعة، فتناديه أكثر من مرة حتى يخرج من غرفته. وأحياناً يأتي صوته: لحظة يا ماما لحظة.. وتستغرق اللحظة ساعةً حتى تعود وتُناديه. حتى الحديقة لم يعد يجلس فيها، وفوجئت به يقول لها ذات يوم وهو يُظهر لها منظراً طبيعيّاً من شاشة الهاتف: يا له من منظر خلّابٍ يا أمّي.. يبدو منظر حديقتنا باهِتاً بالمُقارنة معه. لم تستطع أن تتملّك نفسها، فقالَت لأبيه: وضع ابننا لم يعد يُسكَت عليه يا أبا باسم، أشعر بأن الهاتف لم يخطفه منّا ومن دروسه فحسب، بل حتى من الطبيعة. ثم همهمت بغصّة بكاء: أشعر بأنّه يوماً بعد يوم يتحوَّل إلى كائنٍ رَقَميّ.

اختفاء هاتف باسم

أصدر أبواه تنبيهاتٍ متلاحقة له، بَيدَ أنّها لم تكن مجدية، وبعد مرور شهرَين آخرَين من العام الدراسي؛ خطر لأمّه ذات يوم أن تخفي عنه الهاتف، وقامت بتنفيذ الفكرة. لدى رجوع باسم من المدرسة وكالعادة اتّجه إلى هاتفه الذي اعتاد أن يضعه على الطاولة في غرفته، بهت عندما لم يجد الهاتف في موضعه، صار يُقلّب الكُتب، يبحث في زوايا الغرفة، بين الفراش، تحت السرير لعلّه سقط سهواً دون أن ينتبه لذلك. انتصب واقِفاً وهو يزمّ شفتَيه ويتمتم: أينَ ذهب الهاتف، وضعته بيدي على الطاولة قبل أن أذهب إلى المدرسة؟!.

هرول من الغرفة سريعاً وهو يُغالب نهنهات البُكاء، اتّجه إلى أمّه في المطبخ، قال: هل رأيتِ هاتفي يا ماما؟

نظرتْ إليه للحظاتٍ وقالت: نعم يا بُنَي، أخفيته عنك حتى تتفرَّغ للدراسة، وعندما تُغلَق المدارس في الصيف، سأخرجه لك.

امتقعَ وجهُه بغتةً، ترقرقت مآقيه بالدموع، ثم استدار عائِداً إلى غرفته دون أن ينبس ببنت شفةٍ، وغدا ينشج بصوتٍ كسير.

عندما جاء أبوه مِن الدوام، أخبرته بِما حصل وقالَت: لم أكن أتوقَّع يا أبا باسم كل ذاك الانفعال الذي بدرَ منه.

خَطا على عجلٍ إلى غرفته، ألفاه قاعِداً على حافَّة السرير ينشج وهو ما يزال بثيابِه المدرسية، نهض باسم وقال بشهقة بكاء حارة: أريد هاتفي يا أبي.

عندما رآه متوتّراً، تركه وخَرَج دون أن يُجادله، وراح يغيّر ثيابه ويغسل يدَيه كي يتناول الغداء.

أعدَّت أمّه الطعام على المائِدة، رمقت كرسيّه الفارغ، ذهبت إليه كي يأتي لتناول الغداء، قال وهو يرفع وجهه الذي غدا شديد الاحمرار: لستُ جائِعاً.

اعتلَت غصَّةٌ إلى حنجرتها وما لبثت أن تَرَكته وهي تضع كفّها على خدّها، قالت لأبيه: ابنك صار يكذب يا أمين.

قال: كيف يكذب يا حنان؟

قالَت: يقول بأنَّه ليس جائِعاً، ولن يأتي ليتغدّى معنا. انبجَسَت دموعٌ من عينَيها وأردفَت تقول: ماذا فعل بنا هذا الهاتف اللعين، سوف نخسر ابننا، ليتني لم أذهب في ذلك اليوم إلى بيت خاله، ولم يرَ أولاد خاله يلعبون بهواتفهم.. أوف.. دوماً المشاكل تأتي مِن الخارج.

قال: اهدئي يا حنان.

قالت: كيف أهدأ يا أمين وأنا أرى ابني وقد تغيَّرت أحوالُه رأساً على عقب؟!.

قال: لعلَّه يكون صادِقاً.

قالَت وهي توجّه نظراتها إليه: كيف يكون صادِقاً يا أمين وهذا موعد الغداء؟!.

قال: هو الآن مضطرب، وعندما يكون الإنسانُ مُضطرِباً يفقد الشهيّة للطعام.

قالَت: وماذا نفعل؟

قعدَ على كرسيه إلى مائدة الغداء، دعاها للجلوس على كرسيّها قائلاً: لنأكل طعامنا، أشعر بجوعٍ شديد، وجسدي مُنهك من إرهاق العمَل.

مسحت دموعها بباطن كفّها، رمقت كرسيّه الفارغ وغمغمَت وهي ما تزال واقِفة: كيف نأكل وباسم ليس معنا؟!

قال: حتى لو جاء، لن يستطيع أن يأكل يا حنان، لأنَّه متشنّج ولا يتخيَّل أن يبقى بلا هاتف بعد أن اعتادَ عَليه.

بعد لحظاتٍ من وقوفها وهي حائِرة، قعدت على كرسيّها، تناولَت ملعقة رز، ثم مدَّت يدها إلى قطعة من لحم الدجاج،

تذكَّرت أنّه قبل أن يذهب إلى المدرسة قال لها كعادته: ما الغداء اليوم يا أمّي؟

قالَت: دجاج ورز.

قال: فقط.

قالَت: ماذا تريد أيضاً يا باسم؟

قال: من فضلكِ يا أمّي أعدّي أيضاً مرقة بطاطا

قبَّلَته وقالَت: تكرم حبيبي.

قال: شكراً يا أمّي.

لم تكن البطاطا موجودة في البيت، فذهبت قبل أن تباشر بالطبخ إلى دكّان العم توفيق في الحارة وابتاعَت كيلوجراماً من البطاطا، وعند ذاك وقع نظرُها على الكيوي، تذكَّرت بأنَّه يحبّ هذه الفاكهة كثيراً، فابتاعَت كيلوجراماً منه أيضاً.

انتبهت بأن قطعة اللحم ما تزال بيدها، أعادتها إلى حيث كانَت على الرز. نظرت بوجومٍ إلى مرقة البطاطا، وبعد لحظاتٍ سدَّدَت نظرةً إلى كرسيّه الفارغ مرَّة أُخرى، تخيَّلته يتناول الطعام بشهيَّةٍ كعادته، لأنَّه يكون قد عاد مِن المدرسة جائِعاً.

خطر لها أنَّها استعجَلَت في إخفاء الهاتف عَن ابنها، وكان عليها أن تتوقَّع ردّ فعله.

كسرت الصمت الذي كان مطبقاً عليهما وقالَت: بالي مشغولٌ على ابني يا أمين؟

نهض واقِفاً على قدمَيه وتمتم: أنا مُتعَب الآن وأحتاج إلى الراحة، بعد القيلولة سنرى ما الذي يمكننا أن نفعله.

لبثت في موضعها شاردة الذهن، رأت بأنّه لم يأكل إلّا القليل مِن الطعام.

مضى بخطواتٍ وئيدةٍ إلى غرفة النوم، مضى وقد أدرك للتو المأزق الكبير الذي وضع نفسه فيه، بل وضع زوجته وابنه فيه أيضاً. استلقى على السرير، واجه نفسه بحقيقة أن ابنه إن لم يكن قد خرج تماماً عَن سيطرته، أصبح على الحافة الأخيرة للخروج. انهمرت دموع من عينَيه، غدا كل شيءٍ داكِناً أمامه. بكى.. بكى.. بكى كطفلٍ صغير، حتى صوت البكاء الذي أراد أن يكتمه، خرج عَن سيطرته، تمرَّدَ عليه. سحب البطانية إلى قمّة رأسه، كانت المرّة الأولى التي بكى فيها، المرّة الأولى التي رأى وعاش فيها بكاء الرجال.

أزاح البطانية عَن رأسه، مسح دموعه بباطنَي كفّيه، انتبه إلى الوسادة المبلولة بدموعه، قلبها إلى وجهها الآخر. ترك

السرير، نظر إلى وجهه في المرآة. حاول أن يمسك بزمام نفسه حتى لا يبدو واهِناً أمام زوجته.

تناهى إلى سمعها صرير الباب، اندفع صوته: حنان.. حنان..

جاء صوتُها مِن غرفةٍ أُخرى: لحظات يا أمين.. لحظات.

كانت ترتّب بعض الثياب، فتركتها كما هي ونهضت، رأته قاعداً على الأريكة.

دخلت إلى المطبخ، غابت قليلاً ثم عادت تحمل إبريق الشاي وقعدَت بجانبه.

قال وهو ينظر إليها تصبّ الشاي في كأسَين على المائِدة الصغيرة أمامهما: ما أخبار باسم؟

مدَّت إليه كأس الشاي وقالت: ذهبتُ إليه مرَّة أُخرى، كان يجلس على طرف سريره وينظر إلى الأرض.

جرس الإنذار

انتظَرا حتى العشاء ولم يخرج مِن غرفته، لم يصدر أيّ صوت من غرفته كما لو أنّه ليس فيها.

ارتشف رشفة طويلة من الشاي وقال: ألا تُلاحظين شيئاً غريباً اليوم يا حنان؟

نظرت إليه بعينَيها الصغيرتَين وقالَت بنبرة بكاء: ما هو؟

نظر إلى غمامة الشحوب التي كست وجهها وقال: اليوم منذ عودتي من الدائرة وحتى الآن لم نستخدم الإنترنت.

للتو فطنتْ لذلك وقالَت: صحيح.

عند ذاك أدركا بأنهما أيضاً كانا يستخدمان الإنترنت بنهم.

قال وقد هبَّ واقفاً على قدمَيه: هذا هو يا حنان.

نهضت وهي تصوّب نظرات دَهِشة إليه فقال: أعطني هاتفه.

قالَت: ماذا ستفعل؟

وقبل أن تسمع الإجابة، هرولَت إلى غرفة أُخرى وعادت حاملةً الهاتف بيدها ومدَّته إليه.

التقطه من يدِها واتّجه على الفور إلى غرفة باسم، طرق الباب عدَّة طرقات بخفوت، ودخل.

عندما رآه باسم داخلاً والهاتف بيده، تغيَّرَت ملامحه فجأةً، نهض ببسمة ارتسمت على شفتيه تلقائياً، ألقى بجسده في حضنه وقال: شكراً لك يا أبي.. شكراً لأنَّك أعدتَ لي هاتفي.

أعطاه الهاتف، ثم مسح على شعره وخرج.

لحظة خروجه من غرفة باسم وجلوسه في الصالون، راوده شعور بأن جرس إنذارٍ أخذ يقرع في داخله، يهزه مِن الأعماق.

كما لو أنّه كان نائماً لسنواتٍ طويلة واستيقظ للتو، لم يكن خلال السنوات الماضية قلقاً على ابنه بمقدار قلقه عليه الآن. لم يكن يدرك حجم الخطر الجسيم الذي بات يحدق ببيته، كما غدا يُدرك الآن مع اقتحام هذا الفضاء المفتوح بكل جبروته ومغرياته أركان البيت، وهو يقتلع ابنه أمام عينَيه من واقِعه ويأخذه إلى متاهات واقعٍ افتراضي.

انتبه إلى ضرورة إعادة ترتيبٍ لمنهج حياته العائلية، غدا كمن كان في غفوةٍ وجَفَل. رمق جهاز الهاتف، تذكَّر كم أنه استهلكَ من وقته دون جدوى.

في اليوم التالي ابتاعَ مجموعة من الكتب، ومنها كتب الأطفال، وأنشأ بِها مكتبة منزلية. قالت زوجته وهي تنظر

إلى الكتب المصفوفة: أشعر بنفحة حياةٍ جديدة دخلت إلى بيتنا، كم أن وجود الكتب يبعث الأنسَ في البيت.

قال: أشياءٌ كثيرة كان الهاتف يحرمنا منها دون أن ندري، الآن صرتُ أدرك كم أنّه كان مُتحكِّماً بحياتِنا وليس بحياة ابننا فقط يا حنان.

حمل كتاباً وشرع يقرأ، فقالت: وقتٌ طويلٌ مضى لم أقرأ فيه كتاباً، حملت هي الأخرى كتاباً وجلست تقرأ.

لم يقتصر التغيير على القراءة فقط، بل غدوا يخرجون في المساء لممارسة رياضة المشي، وبين فترةٍ وأُخرى يتناولون العشاء في أحد المطاعم، يقومون بزيارات لبعض الأهل والأقارب.

بعد نحو شهرَين من ذلك قال لها ذات يوم: أشعر حقيقةً يا أم باسم بأنّني صرتُ أمقتُ الهاتف، لأنّه كان يستولي على كل فراغي، كان يحرمني من نِعَمٍ كثيرة في الحياة.

قالَت: هذا هو شعوري أيضاً يا أبا باسم، كنتُ أحياناً أطبخ بِيَد وأنظر إلى الشاشة بالأُخرى، كان كالكابوس، حتى في منتصف الليل أحياناً عندما كنتُ أستيقظ، كنت أفتح الشاشة لأطل طلّةً عليها.

ألقى نظرةً إلى ساعة يده وقال: بعد أن اشتريتُ هذه الساعة، صارت تغنيني عن إخراج هاتفي من جيبي بين حينٍ وآخر كي أعرف الوقت عندما أكون في العمل، أو في أي مكانٍ آخر. بعد لحظاتٍ ابتسم واستطرد يقول: زميلي في العمل (نذير) عندما رأى الساعة على يدي، اقتدى بي هو الآخر وبعد عدَّة أيّامٍ جاء إلى مكتبي في الدائرة وأخبرني بشراء ساعة.

قالَت: لا أخفيكَ يا أمين كم أنّني قلِقة على ابننا لأنّه رغم كل ما نفعله، ما يزال متعلِّقاً بالإنترنت، وفي الليل يسهر عليه حتى يغلبه النوم.

أحياناً أدخل غرفته كي أغطّيه إذا كان مكشوفاً، أراه نائِماً والهاتف بيده.

أردفَت تقول: لكن هذا النظام الجديد الذي اتّخذناه في البيت جعله يخفّف بعض الشيء من استخدام الهاتف، صحيحٌ أنَّه عندما يأتي ويجلس معنا، ويرانا نقرأ، يكون الهاتف بيده، لكنّه أحياناً يضع الهاتف جانِباً ويتَّجه إلى المكتبة، يحمل كتاباً ويقرأ.

الأمر الآخر، البيانو الذي اشتريناه له، يأخذ بعض الوقت من فراغه، وأحياناً أراه يستخدم الإنترنت في تدريب نفسه على العزف.

الفصل الثاني

باسم وحيداً في البيت

كان الوقتُ عصراً عندما جاءت السيارة التي ستقلّهما إلى القرية، خرجوا جميعاً، صعد أبواه إلى السيارة وهما يلوّحان بيدَيهما، لبث باسم واقِفاً على الرصيف يلوّح لهما بيده حتى توارت السيارة عَن ناظرَيه.

استدار إلى الباب ودخل البيت بغصّةٍ علَت حنجرته، بدا كل ما في البيت غريباً بالنسبة إليه كما لو أنّه يدخل مكاناً غريباً لأوَّل مرة. الصمتُ يخيِّمُ على كل شيء، لا صوت، لا حركة، ولا يعرف ما الذي سيفعله.

قفزت صورة جدَّته إلى مخيّلته، جدَّته التي تزورهم بين فترةٍ وأُخرى وتمضي أسبوعاً عندهم. تذكَّر أنَّه قبل عدَّة أشهر عندما زارتهم، قال لأبيه: لماذا لا تعيش جدَّتي معنا يا أبي؟

قال: لا تستطيع أن تترك جدَّك يعيش لوحده، بعد لحظاتٍ أردف يقول: هل تستطيع أمّك أن تعيش بعيداً عنّا يا بُنَي؟

قال: لا يا أبي.

قال: جدَّتك أيضاً لا تستطيع أن تعيش بعيداً عَن بيتها.

اتَّكأ على الأريكة، شغّل التلفاز، غدا يُقلِّبُ القنوات من خلال أزرار جهاز التحكّم، لكنَّه لم يأنس لشيء، أطفأ التلفاز ونهضَ متّجهاً تحت سطوة رهبة السكون إلى غرفته، راجع دروس يوم الغَد، لم يستغرق ذلك منه وقتاً طويلاً حتى انتهى.

لأوَّل مرَّةٍ خطر له أن يميّز بين الصمت الذي يحل على البيت عندما يرى أبوَيه نائمَين، أو جالِسَين يقرآن. وبين الصمت الذي حل الآن ولا أحد في البيت غيره، غمغم في قرارة نفسه: ذاك صمتٌ مؤنس، وهذا صمتٌ موحش. رمق البيانو الصامت في الغرفة بالقرب من طاولة الدراسة. أراد أن يكسر زجاجة الصمت، امتدَّت أصابعه إلى لوحة مفاتيح البيانو، وغدا يعزف. انتشرت الموسيقى في الغرفة مع حركات أصابعه على المفاتيح، استمرّ في العزف والنغمات تنتشر في أجواء البيت. اعتراه شعورٌ بأن الصمتَ لاذ بالفرار.

توقَّف عَن العزف، استلقى على ظهره في السرير. تعلقَت أنظاره بالسقف، اعتراه شعورٌ بأنّه في فَلاةٍ لا أحد فيها غيره. أزاح نظره عن السقف، مدّ يده إلى جهاز الهاتف، غدا يُشاهِد بعض الألعاب وهو ممدَّدٌ على ظهره.

مضى به الوقت وهو مستغرق بالنظر في شاشة الهاتف يتجوَّل بين المواقع دون أن يشعر حتى أحسَّ بجوعٍ، عند ذاك نظر إلى الساعة المعلَّقة على الحائِط في غرفته، وكانت تُشير إلى التاسعة مساءً.

تذكَّر أنّ أباه في الشهر الماضي جلب الساعة وعلَّقها على الحائِط، عندها قال له: لماذا جلبتَ الساعة يا أبي، والهاتف فيه ساعة؟

قال: ليست خسارة يا بُنَي، منظرها جميل.

خطر له في تلك اللحظات أنَّه منذ ذلك الوقت، عندما يريد أن يعرف كم بلغت الساعة، لم يعد يفتح شاشة الهاتف، بل يلقي نظرة إلى تلك الساعة المُعلَّقة على الحائِط.

تمطّى قليلاً، نهض وذهب إلى المطبخ تحت وطأة رهبة السكون المُطبِق على البيت، أعدّ مائِدة العشاء المكوَّن من الزيتون، والجبن، ومربى المشمش، والشاي. قعدَ على الكرسي وبدأ في تناول الطعام بصمت، تخيَّلَ جلوس أبوَيه على كرسييهما وهما يتناولان الطعام.

في تلك اللحظات ولَجَت القطة إلى المطبخ، قبعت على ذيلها بجانب الباب وغدَت تنظر إليه بعينَين برّاقتَين، وبين لحظةٍ وأُخرى تُصدر مواءً رقيقاً: مياو.. مياو..

اعتراه شعورٌ بالأنس وهو ينظر إليها ويستمع إلى المواء الخافت الذي تُصدره.

قطَّة ناصِعة البياض، مضت سنةٌ ونصف على وجودها في البيت، كان ذلك عندما فتح أبوه ذات صباحٍ باب البيت ليذهب إلى عمله، فوقعت أنظاره على قطَّةً صغيرةً، هرعت بسرعةً من الشارع ودخلت البيت.

كان الوقتُ منتصف شهر كانون الأوَّل، وكان البرد قارِساً، وزخّات المطر تهطل. بعد قليلٍ من وقوفه على الرصيف وهو يدفّئ يدَيه ببعضهما والبخار يخرج من فمه؛ جاء الباص الذي يحمل الموظفين صباحاً إلى أعمالهم في دائرة الإحصاء، ويعيدهم إلى بيوتهم بعد انتهاء الدوام.

صعد بسرعةٍ، ألقى السلام على زملائه، ثم جلس على الكرسي المُخصَّص له.

عند رجوعه بعد الظهر، وكان المطر قد توقَّفَ عَن الهطول، وزحفَتْ خيوط شمسٍ خفيفةٍ إلى الطرقات؛ رآها تقبع على ذيلها وسط حديقة البيت تحت الشمس، وما إن لَمَحَته حتى هَرَعت واختبأت خلف جذع شجرة الكرز.

عند ذاك تذكَّر دخولها إلى البيت في الصباح وهي مُبلَّلة بالمطر، خطر له بأنَّها جائعة، خطا إلى الداخل تسبقه نبرات صوته: لدينا ضيفة يا أمّ باسم.

كانت إذ ذاك ترتدي المئزر وتعدّ وجبة الغداء المكوَّنة مِن البطاطا المقليَّة والسَمَك، فتركَت ما بيدَيها وخرجت وهي تقول: الحمد لله على سلامتك يا أبا باسم، أهلاً وسهلاً بِها، ثم نظرت حولها وقالَت: أينَ هي الضَيفة؟

نضى معطفه الشتوي السميك، علَّقه على المشجب وقال: ضيفتنا موجودة في الحديقة يا أمّ باسم.

ارتسمَت علامةُ دهشةٍ على وجهها، دخل المطبخ، سكب بعض اللبن في صحنٍ، أخرج قطعةَ خبزٍ وأحالها إلى نتفٍ صغيرة ومزجها مع اللبن. خرج وهو يحمل الصحن، فلحقته، وفي تلك اللحظات خرج باسم أيضاً مِن غرفته، وعندما رآهما يخرجان، لحق هو الآخَر بهما إلى الحديقة.

تقدَّمَ أبوه إلى جذع الشجرة، وضع الصحن بالقُربِ مِن القطّة الصغيرة، ثم تراجَعَ القهقرى إلى حيث باسم وأمّه. بعدَ قليلٍ أصدرَت القطَّة الصغيرة مواءً خافِتاً، دنَتْ من الصحن وغدت تأكل وبين لحظةٍ وأُخرى ترفع رأسها، ترمقهم بنظرةٍ، ثم تعود وتأكل.

كانت قطة جميلة ناصعة البياض كبياض الثلج، ذات عينَين زرقاوين كلؤلؤتَين.

راوده شعورٌ بالارتياح وهو ينظر إليها مُبتسماً نصف ابتسامة، فقال: سبحان الله، ارتحتُ لهذه القطة منذ الصباح يا أم باسم عندما دَخَلَتْ البيت كما لو أنَّها طفل صغير لاذ بِنا.

قال باسم: قطة جميلة يا أبي، ربما تكون عطشى، سأحضر لها ماءً.

وسارع إلى المطبخ، ملأ علبةً صغيرةً بالماء، وعاد يحملها بيدَيه، دنا مِن القطّة ووضعها بالقرب مِن صحن اللبن.

قال أبوه وهم ينظرون إليها تأكل تارةً وتنظر إليهم تارةً أُخرى: ربما ضاعَت عَن أمّها، عندما فتحتُ الباب، رأيتها تجري بسرعة وتدخل إلى البيت كما لو أنَّها كانَت تهرب من شيءٍ ما وتطلب منّي الحماية.

بعد لحظاتٍ، مضى إلى الباب وخرج يوزّع نظراته في أنحاء الشارع لعلَّه يرى أمّها. ثم ما لبث أن رجع وهو يقول: أمرٌ غريب، عادةً تبحث الأمّ عن صغارِها عندما تفقدهم، لا بدّ أن تكون في هذا الحيّ وإلّا كيف أتت صغيرتها إلى هُنا؟!.

قالَت: الغريب أيضاً يا أبا باسم أنها لا تموء حتى تسمعها أمّها، ولم نكن نعلم بأنَّها منذ الصباح هُنا لولا أن أخبرتَنا. ثم أردفت وهي ما تزال تنظر إليها: أتعرف يا أبا باسم، انشرح صدري وأنا أنظر إلى هذه القطَّة، ذكَّرَتني بباسم عندما كان رضيعاً.

قال: وأنا كذلك يا أم باسم، ذكَّرتني بطفولته.

قال باسم: دعها في بيتنا يا أبي، لقد أحببتها.

قال: أكيد يا بُنَي وكيف نطردها في هذا البرد القارس وهي صغيرة، إلّا إذا جاءت أمّها وأخذتها.

قالت: ذات العينَين الجميلتَين.

قال باسم: كل شيء فيها جميل يا ماما: فمها، أنفها، وجهها، حتى ذيلها جميل.

ثم تقدَّم وهو ينظر إليها ويقول: شيري.. شيري..

منذ ذلك اليوم لبثتْ القطَّة في البيت وصاروا يُنادونها شيري، خصَّصوا لها ركناً في الداخل كي تنام فيه، فغدت تمضي وقتها ما بين الحديقة وداخل البيت، وأحياناً تخرج إلى الشارع تمضي بعض الوقت وتعود.

مع مرور الأيّام ألفتهم وألفوها، وصارَت تأتي إليهم في بعض الأمسيات عندما يكونون جالسين معاً في الصالون، تُبدي بعض الحركات، تجلس بجانبِ أحدهم كما لو أنها أحد أفراد الأسرة. وباتوا يلاحظون سلوكياتٍ غريبةٍ تبدر منها، فلم يسبق لها أن دخلت المطبخ إلّا إذا وجدت أحداً فيه، ورغم ذلك تبقى بجانب العتبة حتى تراه ينظر إليها فتدخل، وأحياناً يفتقدونها، فيبحثون عنها ويجدونها قابِعة في الحديقة.

باسم يتعلَّم لغة القطَط

أشار لها أن تتقدَّم إليه وهو يقول: بس.. بس..

فتقدَّمَت وهي تتبَختَر ونطَّت إلى حضنه، عند ذاك أحسَّ بأنَّه ليس لوحده في البَيت، بل هُناك مَن يُشارِكه، وغدا يمسد على شعرها الناعم تارةً، ويدسّ قطعة جبنٍ في فمها تارةً أُخرى.

في ذروة مشاعره بالألفة والأنس معها لا يدري كيف خرجت منه عبارة: هل أنت سعيدة في بيتنا يا شيري؟

ثم ما لبث أن ضحك على نفسه لأنَّه تحدَّث مع قطَّةٍ لا تجيد الكلام، لكن بعد لحظاتٍ تناهى مواؤها وهي تقول: أكيد يا باسم أنا سعيدة.

ظنَّ للوهلة الأولى بأنَّه تخيَّل سماع الصوت، ولكن بعد قليلٍ عاد المواءُ على شكل كلماتٍ إلى مسمعه مرَّةً أُخرى: لو لم أكن سعيدة في هذا البيت لغادرتكم منذ اليوم الأوَّل.

رمقها بنظرةٍ دَهِشةٍ فاغراً فاه، فأردفت تقول وقد رفعت رأسها تنظر إليه: لا أتخيَّل نفسي أن أعيش في بيتٍ آخر غير هذا البيت، ولا مع أناسٍ غيركم، لقد أحببتكم كثيراً يا باسم كما أحببتموني.

أيقن أن القطة بذاتِها هي التي تتحدَّث معه، فقال مشدوهاً وهو يصوّب إليها نظراته: لم أكن أعلم بأنَّكِ تجيدين الكلام يا شيري.

قالَت: ليس فقط لغة الكلام، بل لغة النظرات أيضاً، فعندما أنظر إليك أعرف بأنك سعيدٌ أم حَزين.

ثم انهمرَت دموعٌ من عينَيها وقالَت: أمّي علّمَتني الكلام، كنتُ كل يوم أضع رأسي على صدرها فتعلّمني الكلام ولغة النظرات، وكانت أحياناً تُمازحني وتُداعبني بذيلها.

قال: وأين هي؟

قالت: ماتت في نفس اليوم الذي جئتُ فيه إلى هذا البيت.

ضمَّها إلى صدره وقال: كيف ماتت أمّك؟

قالَت: قبل موتها بعدَّة أيّامٍ مرضتْ فجأةً، وكانت تعاني من آلامٍ شديدة في معدتها ولا تنام طوال الليل وهي تئن وتتوجع، ولم أكن قادرةً على فعل شيءٍ لها.

كانت تقول لي وهي تحتضنني وتُقبّلني: لا أخاف على نفسي من الموت يا بنَتي، ولكنَّني خائِفة عليكِ، كوني حذرة وانتبهي جيداً عند عبورك الطرقات العامة حتى لا تدهسكِ السيارات الطائِشة، لا تأكلي الطعام الذي تفوح منه روائح كريهة، ابتعدي عَن تجمّعات الناس.

كانت كل يوم تهزل أكثر حتى بدا لي بأنَّها تحوّلَت إلى جلدٍ على عظم، وذات صباحٍ استفقت ولم أرها يقظة كعادتها.

هبط قلبي وأنا أنظر إليها، قلت بخفوتٍ: ماما.. ماما..

لكنّها لم تفتح عينَيها، أصابني ذعرٌ عندما ألفيتُها جامدةً ولا تتنفَّس، فعرفت بأنَّها ماتت، أجل ماتت وهي ما تزال في عامها الخامس، لم تهنأ برؤيتي وأنا أكبر وأعتمد على نفسي، ماتت وهي قلقة على مصيري وتركي وحيدة.

حينها صرخت بأعلى موائي: ماما.. ماما.. ماما.. ما..ما.. ما..ما..

لأوَّل مرَّة لم تسمعني، لم تستجب لموائي، نظرتُ إليها ودموعي تنهمر بغزارة، توقَّفَتْ غصّةٌ في حنجرتي ولم أعد قادِرة حتى على المواء.

اسودَّت الدُنيا أمامي في تلكّ اللحظات المُرعِبة، أحسستُ بالضياع، وأنَّني لن أستطيع أن أعيش من بعدها، هرعتُ مذعورة خوفاً وبرداً، لا أعرف إلى أين أتَّجه حتى وجدتُ بابكم مفتوحاً وكان أبوك يخرج مِنه، سارعت ودخلت قبل أن يغلق الباب، وعندما رأيتُ الحديقة، اتَّجهتُ إليها، وصرتُ أنظر إلى الباب خائِفة أن يأتي ويطردني. بعد قليلٍ رأيته يمدّ رأسه مِن الباب ويبحث بنظراته عنّي حتى رآني، لكنَّه تركني وهو يهزّ رأسه ويبتسم، اطمأننتُ وصرتُ أسترِدّ أنفاسي وأبكي من جديدٍ على أمّي وعلى مصيري المجهول.

قال باسم وهو يمسح على ظهرِها: كم سنة يمكن أن تعيش القطَّة؟

قالَت: سألتُ أمّي هذا السؤال ذات يوم عندما كنا نمشي في أحد الشوارع ومررنا بجانب قطَّة عجوز كانت تبدو متعبة وكانَت أمّي على معرفةٍ بِها، فقالت لي: هذه القطّة عمرها 14 سنة.

يومها أخبرتني أن القطَّة المعمّرة يمكن أن تعيش 16 سنة.

أردفت تقول بعد صمتٍ قصيرٍ: إنّها ذكريات مؤلمة وجميلة بالنسبة لي في ذات الوقت، مؤلِمة لأنّني فقدتُ أمّي وكان أسوأ يوم في حياتي، وجميلة لأنّني تعرَّفتُ عليكم وصرتُ أشعر بانتمائي إلى هذا البيت. كنتُ بحاجةٍ ماسَّةٍ للشعور بالأمان، وأنَّني لن أبرد ولن أجوع، وهذا ما رأيته في هذا البيت الذي أشعر بأنّه بيتي ولا مكان لي في هذه المدينة غيره.

الفصل الثالث

بعد العشاء

نهض باسم وهو يحمل القطة في حضنه وذهب يتَّكئ على الأريكة وقد امتلأ شعوراً بأنَّه لم يعد لوحده في البَيت، غدا يمسد على شعرها الناعم ويتخيَّل بأنَّها كانت تسمع وتستوعب كل ما كانوا يتحدَّثون به، فقال لها: ألم يخطر لكِ مشاركتنا في الحديث الذي كان يدور بيننا في البيت طوال هذه المدَّة ولو بينكِ وبين نفسكِ؟

قالَت: ليس مِن حقّي أن أتدخَّل في شؤونِكم، كنتُ أستمع وأكتفي بالصمت، وعندما كنتُ أعلم بأنَّكم تتحدَّثون في أمورٍ خاصَّة، كنتُ أخرج من البيت وأبتعد حتى لا أسمعكم، أمضي بعض الوقت وأنا أتجوَّل في الطرقات، ثم أنطّ مِن فوق الحائِط وأعود إلى البيت.

كنتُ أبقى بالقُرب منكم وأنا أستمع إليكم بسعادة عندما كنتُ أراكم سعداء وتضحكون وأنتم تتبادَلون أطراف الحديث، كانت تلك أجمل الأوقات في حياتي.

قال: هل تحفظين ملامحنا؟

قالت: أعرفكم واحداً واحداً أينما رأيتكم، أميِّز أصواتكم إذا وصلتني وأنا في الحديقة، أو في مكانٍ آخر.

أردفت تقول بعد صمتٍ لم يطل بها: أحياناً عندما أكون في الشارع، أراكَ عائداً مِن المدرسة فأطمئن على عودتك بالسلامة، أحياناً أشتاق إلى أحدٍ منكم فأبحث عنه حتى أجده وأنظر إليه، ثم أقترب إليه وأُداعِبه.

قال: هل تميلين إلى أحدِ منّا أكثر من الآخر؟

قالت: كل واحد منكم لديه مكانته الخاصَّة في قلبي، أمّك وهي تقول لي: ذات العينَين الجميلَتَين. وتغسلني كل شهر مرّة فأشعر بانتعاش، وقد اعتدتُ على غسلها لي، أحياناً أرى صورة أمّي فيها، ما نظرتُ إليها يوماً إلّا وتذكَّرتُ أمّي.

أبوك وهو يُقدّم لي الطعام حتى لو كان الوقت متأخّراً مِن الليل، ولا يترك عبوتي تفرغ مِن الماء كأنّه يعرف بأنَّني أحب شرب الماء. كانت أمّي أوصتني قبل أن تموت: اشربي الماء جيداً يا بنَتي إنَّه مفيد، يحتاج جسمكِ إلى الماء أكثر من حاجته إلى الطعام.

وأميل لك عندما تُداعبني، فأشعر بألفةٍ وأستجيب لمداعبتك لي، أريدكَ دوماً أن تمسح على رأسي وجبيني، أن تضع يدك على عنقي وخدّي، وتدلّك ظهري، أحبّ ذلك كثيراً

وأرتاح له، لكن لا تقرّب يدك من بطني لأنّني أتدغدَغ وأتضايق من هذه المُداعَبة.

أردفت تقول: أحياناً عندما أراكَ جالِساً، أحنُّ إلى مداعبتك لي فأتقدّم وأنط على كتفَيك، وعندما لا تستجيب، أضرب رأسي بك حتى تستجيب وتُداعبني بحماس، وأنا أتجاوب معكَ بحماس.

قال: متى تحزنين؟

قالت: عندما أسمع شخصاً يوصم الآخر الذي ارتكب خطيئةً بالحيوان، عندها أحزن مهما كان نوع ذاك الحيوان لأنّه ينتمي إلى جنسي وأنتمي إلى جنسه.

تثاءب باسم وأحسَّ بالنُعاس، فنهض وقال: تصبحين على خير يا قطّتي الجميلة.

قالت وهي أيضاً تتثاءب: تصبح على خير يا باسم.

مضت إلى الركن المخصَّص لها في البيت الذي باتَ يُعرَف بـ ركن القطَّة، وهي تحرّك ذيلها الحريري الطويل يَمنةً ويَسرةً، ومضى باسم إلى المغسلة، غسل أسنانه، ثم اتَّجه إلى غرفته تحت وطأةِ نعاسٍ ثقيل.

الاسم الحقيقي للقطّة

في الصباح عندما استفاق باسم بعد نومٍ عميقٍ، راودته مشاعر غريبة وهو في البيت دون أبوَيه.

في تلك اللحظات، كم أحسَّ بقيمتهما في حياته، أحسَّ بمدى حاجته إليهما، تخيَّل كم أن حياته ستكون تعيسة دونهما، عاهد نفسه بأنَّه سيبقى يطيعهما وألّا يفعل شيئاً يمكن أن يسبّب لهما إزعاجاً.

أعاد ترتيب الفراش على السرير بشكلٍ أنيقٍ كما عوَّدته أمّه، ران كلامها في سمعه: يا بُني عندما تنهض من سريرك، أعد ترتيبه، ترتيب فراش النوم الذي تنهض منه صباحاً، يكون أساس ترتيب يومك بأكمله.

بخروجه من الغرفة تذكَّر القطَّة، خَطا إلى ركنها، كانَت مستيقظة تلعق فراءها بلسانِها بشكلٍ سريعٍ مُتلاحق. قال: صباح الخير شيري.

نظرت إليه وماءت: صباح النور. وعادت تلعق فراءها

قال: هل نمتِ جيداً؟

قالت: نعم.

قال: أراكِ تلعقين فراءك كثيراً.

قالت: أحب النظافة حتى يبقى جسمي خفيفاً، عندما لا أنظّف فرائي يوماً أشعر بأن حملاً ثقيلاً يضغط عليّ.

لبث ينظر إليها، فأردفت تقول: كانت أمّي دوماً توصيني أن أنفض الغبار عن شعري وألّا أتركه يتراكم عليه. كانت في البداية هي التي تنظّفه لي بلسانها، بعد ذلك عندما خشنَ لساني علَّمتني طريقة اللّعق بشكل يومي وقالَت: لا تتركي يوماً واحداً يمرّ دون أن تنظّفي فيه شعركِ، سوف تدخله الحشرات إذا اتَّسخ، عندها سوف تتكاثر الحشرات عليكِ ولن تستطيعي التخلّص منها، لأنها سوف تتكاثر يوماً إثر يوم. أعرف قطَّةً قتلَتها الحَشَرات.

قلت: كيف قتلتها الحَشَرات يا ماما؟

قالت: كانت تتكاسل أن تلعق فراءها وتنظّفه، في البداية دخلته حشراتٌ قليلة، ثم تكاثرَت حتى أنهكتها وأوقعتها أرضاً. بقيتْ عدَّة أيّام منهكة دون أن تجسر على الحراك، وكنا نحن القطط نراها، ولم نستطع أن نفعل لها شيئاً. كنّا نجلب لها الطعام، لكنها لم تكن قادرة على الأكل. وذات يومٍ رأيناها ميتة وقد تكاثرت عليها الحشرات أكثر فأكثر. نحن قطط الشوارع إذا مرضنا، لا أحد يهتمّ بِنا يا تابسا.

انتبه إلى الاسم الذي يسمعه لأوّل مرةٍ منها وقال: تابسا..؟!

ضحكت ضحكة طويلة، تجلجل بِها الضحك، ثم قالَت: لم أُخبرك باسمي.. نسيتُ أن أُخبرك. كانت أمّي أسمتني تابسا.

قال دَهِشاً: وهل لكم أسماء؟

قالت: أجل يا باسم، نحن مثلكم، كل قطّة لها اسم. أمّي كان اسمها بوشي. لكنني لم أكن أناديها باسمها، كنتُ أناديها: ماما.

قال: اعذريني يا قطّتي، لم أكن أعلم اسمكِ لذلك أسميتكِ شيري.

قالت: عندما أسميتني بهذا الاسم فرحتُ كثيراً لأنّه اسم جميل، لم أكن أسمع هذا الاسم سوى من أمّي، وأحياناً من صديقتها الوحيدة نوتي التي كانت تحب أمّي كثيراً وكانت كلما نلتقي معها في شارع، أو تزورنا في الركن الذي كنّا فيه، تقبّلني وتقول: كيفك تابسا؟

فأقول: جيدة. كانت أحياناً تأتي إلينا وتقضي الليل كله معنا، وكنتُ أستمع إلى أحاديثهما حتى يغلبني النعاس وأنام.

هزَّ باسم رأسه وبعد قليلٍ مضى إلى المغسلة، غسل وجهه بالماء والصابون، دخل المطبخ، لحقت به القطة، أعدَّ وجبة الإفطار، قدّم لها الطعام.

قالت: أنا أيضاً لي صديقة تعرَّفتُ إليها منذ عدّة أشهر، كنتُ أمشي في الشارع، رأيتها تتقدَّم وتسألني: ما اسمكِ.

قلت: تابسا.

قالت: اسمي ستيلا، هل تقبلين أن نكون صديقتَين.

ارتحتُ لها وقلت: أقبل يا صديقتي.

منذ ذاك اليوم، أحياناً تأتي إلى الشارع، تقف بجانب باب بيتنا وتناديني: تابسا.. تابسا..

فأموء قائلةً: أسمعك يا سيلا.. لحظات وأكون عندكِ.

أخرج بسرعةٍ، نمشي معاً في الشوارع، أو نجلس في مكانٍ ما ننظر إلى الناس ونتحدَّث.

تذكَّر في تلك اللحظات وهو ينظر إليها تأكل أنّه في أوقاتٍ كثيرةٍ يراها نائمة، أو مستلقية في ركنها، فقال: أنتِ تنامين كثيراً يا قطَّتي؟

ابتسمَت وقالَت: عندما تراني مستلقية ومغمضة العينَين لا يعني ذلك بأنّني نائِمة، بل أحاول أن أنام، وأفتح عينَي

لمجرَّد سماع أي حركة حتى أصل إلى النوم العميق بعد وقتٍ طويلٍ من محاولات النوم، وعندها أبقى مستغرقة في نومي ولا توقظني الأصوات إلّا إذا ارتفعت كثيراً وكانَت قريبة منّي.

صمتت للحظاتٍ وقالَت: نومنا يختلف عن نومكم يا باسم، نحن نحتاج أن ننام كل يوم 16 ساعة حتى نستطيع أن نبقى مستيقظين 8 ساعات.

قال: بعكسنا يا قطَّتي، نحن نحتاج أن ننام 8 ساعات، ونكون مستيقظين 16 ساعة.

قالت: أحسدك يا باسم لأنَّك تنام بسرعة، أذكر عدَّة مرّات أنّني كنتُ أسمع شخيركَ بعد استلقائك في الفراش بقليل.

ابتسم وقال: هل أنا أشخر عندما أنام؟

قالت: ليس دائِماً، فقط في بعض الأوقات، أحياناً أدخل غرفتك وتكون مُستغرقاً في النَوم ولا يصدر منك شخير، أنظر إليكَ وأنتَ تتقلَّب في الفراش، أدعك نائِماً وأخرج.

البيت الأول.. المدرسة الأولى

عندما فرغ مِن تناول الطعام، أعاد ما تبقّى إلى البرّاد، ارتدى ثياب المدرسة وعلَّقَ حقيبته على ظهره قائلاً: إلى اللقاء يا قطتي الجميلة.

قالت: إلى اللقاء يا باسم، أنا بانتظارك.

قال: ألن تخرجي؟

قوَّسَت ظهرها وقالَت: لا أحب الخروج من البيت كثيراً، سأخرج إلى الشارع نحو ساعة، ثم أعود وأنتظرك.

مضى باسم إلى الخارج، تذكَّر أمّه وهي تمضي معه وتُهندِمه مع كل خطوَّة، تلبث واقِفة أمام الباب، تلوّح له بكفّها كلّما التفتَ إليها، فيلوّح لها بيده حتى يتوارى عَن أنظارِها.

مشى في الشارع الطويل وبين لحظةٍ وأُخرى يلتفت كما اعتاد وينظر إلى الرصيف الخالي الذي كانت أمّه تقف عليه، يتخيَّلها واقِفة، يلوَّح بيده لخيالِها ويكمل الطريق.

دخل المدرسة التي يشعر بأنها بيته الثاني، المدرسة التي لها منزلة خاصّة عنده، فهي السنة الرابعة على التوالي التي يدرس فيها. حتى في العطلة الصيفيّة عندما يصدف أن يمرّ

بجانبها، ينظر إلى بابها المُغلَق، ينتابه شعورٌ بأنّها تخصّه، وأن له ذكرياتٌ جميلة فيها، عرَّفته على عشرات الطلّاب الذين لم يكن ليعرفهم لولاها.

تذكّر كلام أستاذ مادّة اللغة العربية (معروف) الذي قال لهم ذات يومٍ: مكانان لا يمكن لي أن أنساهما يا أبنائي، البيت الأوّل الذي عشتُ فيه، والمدرسة الأولى التي درستُ فيها. انحفرا في ذاكرتي، غداً عندما تكبرون؛ ستعرفون منزلة هذين المكانَين أكثر، أينما ذهبتم، وحيثما اتجهتم لن يكون بوسعكم نسيانهما، لا شيء يمكن له أن يحل مكانهما. أساتذة المرحلة الابتدائية، وطلّاب المرحلة الابتدائية، هؤلاء يبقون في ذاكراتكم إلى جانب أطفال الحارة الأولى التي عشتم فيها.

باسم وتابسا يأكلان السردين

عندما عاد إلى البيت وفتح الباب، صدر مِنه صوتٌ عفوي: ماما.. ماما..

وعلى الفَور علت غصّة إلى حَنجَرته، ترقرقت دموعٌ في مآقيه وهو يتخيَّلها تُقبّله وتسأله عَن دروس اليوم.

كانت تابسا آنذاك قابعة في الحديقة بانتظاره، وعندما رأته، تقدَّمت إليه وقالت: اشتقتُ لكَ يا باسم، مضى الوقتُ ثقيلاً عليّ.

حملَها ومضى بِها إلى الداخل قائِلاً: أنا أيضاً اشتقتُ لكِ يا قطّتي الغالية.

وضع كفّه على بطنه وقال: أشعرُ بجوعٍ يا قطَّتي، ألستِ جائِعة؟

قالَت: جائِعة، كنتُ أنتظر أن نأكل معاً.

قال: هل تشتهين طعاماً معيَّناً؟

قالَت: أحبُ السردين.

قال: أنا أيضاً أحبّه

بعد أن استبدلَ ثيابه وغسل يدَيه، دخل المطبخ، ودخلت معه القطّة التي كانَت بانتظاره بجانب باب المطبخ.

فتح البرّاد كي يُخرج السردين، وزَّع نظراته على الرفوف التي تستقرّ عليها ألوان الطعام، حرَّكَ بعضها، فتح الدرج دون أن يرى السردين.

استغربَ لذلك وهو يذكر بأن أباه جلب السردين يوم البارِحة.

كانت القطة تنظر إليه وتبتسم، أغلق باب البرّاد وهو يُهمهم لنفسه: أين وضعتْ أمّي كيس السردين، أذكر أنَّه كان كيساً فضّيّاً، تناولَته أمّي مِن يده؟

صار يبحث عَن الكيس في المطبخ، والقطّة ما تزال تنظر إليه وتبتسم. بعد قليلٍ ماءت قائلةً: عَن أيّ شيءٍ تبحث يا باسم؟

انتبه إلى ابتسامتها وقال: عَن السردين، ألا تذكرين أنّ أبي جلبه يوم البارِحة؟

قالَت: أذكر، لذلك طلبتُ منكَ أن تُطعمني السردين اليوم.

قال: لا أعرف أين وضعت أمّي كيس السردين.

ماءت وهي تخرج من المطبخ: تعال معي.

تبعَها باسم حتى قادته إلى الكيس الذي كانت أمّه قد نسيته في إحدى الغُرَف.

قال: كيف عرفتِ مكانه يا قطَّتي؟

قالَت: حاسَّة الشمّ عندنا هي أقوى بكثيرٍ مِن حاسّة الشمّ عندكم.

استأنفَت تموء: ضع علبة سردين بجانب أنفك يا باسم.

أخرج علبة من الكيس، قرَّبها من أنفه، فقالَت: هل شممتَ رائِحة السمك؟

قال: لا، لأنّ العلبة مغلقة.

قالت: أنا أشمّ رائِحته حتى لو كنتُ في الشارع، وتقودني حاسّة شمّي إليه دون أن أبحث عنه كثيراً.

عاد باسم إلى المطبخ حاملاً الكيس، أخرج علبتَي سردينٍ، استرجعَ بذاكرته كيف أن أباه كان يفتح عُلَب السردين، نزع المُفتاح عَن العُلبة الصغيرة ذات اللون الأصفر والقطَّة تنظر إليه وتلعق لسانها، أدخل الحرف الموجود على العُلبة في فتحة المُفتاح، أداره وهو يقول: هذه أوَّل مرَّة أفتح فيها عُلبة سردين يا قطَّتي.

لبث يدير حتى برزت له أربع سمكات صغيرة، سكبها في صحنٍ وقدَّمها للقطَّة، ثم بدأ بفتح العُلبة الثانية وقبل أن ينتهي مِن الفتح؛ أُصيبت سَبَابته بحافّتها وجُرِحَت. هرول إلى المغسلة والدم يسيل منها، لحقته القطَّة، غسلها بالماء، أخرج لاصِقاً طبّياً من صيدليَّة البيت، لفَّه على موضع الجرح وعاد يكمل فتح العُلبة بحذرٍ شديد هذه المرَّة، سكب السمكات في صحن لنفسه وشرَعَ يأكل بشهيَّة.

بعد قليل قال لها: ألا تريدين الخبز؟

قالَت: لا أحب الخبز مع اللحم، أحبه مع اللبن أو مع المرقة.

قال وهو يمضغ الطعام: هل تعرفين ماذا يتغدى جيراننا اليوم؟

قالت: نعم، في البيت الذي يقع خلفنا، يتغدّون الدجاج والرز والفاصولياء، وفي البيت الذي يقع أمامنا، يأكلون المعكرونة.

قال باسم مُندَهِشاً: وفي البيت الذي يقع يميننا؟

قالَت: تغدّوا قبل قليل شوربة العدس

قال: وفي البيت الذي يقع شمالنا؟

قالَت: يبدو بأنّهم ليسوا في البَيت، لا تفوح من بيتهم رائحة طعام.

قال: ربما تغدّوا مِن حواضِر البيت.

قالَت: لا، لأنّ بيتهم الآن صامت لا أصوات فيه.

قال: تسمعين حتى الأصوات؟!

قالَت وهي تأكل السردين بشهيَّةٍ ونَهم: حاسّة السَّمع عندنا هي أقوى بكثيرٍ مِن حاسّة السَّمع عندكم.

باسم يطرق أبواب الجيران

بعد أن فرغا مِن تناول الطعام، أخذ باسم منديلاً، مسح فم القطَّة بشكلٍ جيِّدٍ من آثار زيت السردين وقال: تعالَي معي.

خرج من البيت إلى الشارع، تبعته القطة وهي تحاول اللحاق بخطاه، اتجه شطر البيت الذي لا أحد فيه كما أخبرَته. طرقَ الباب عدَّة طرقات، انتظر وهو يرمق القطة تارةً ويرمق الباب تارةً أُخرى. بعد نحو دقيقةٍ طفق يسدّد طرقات أُخرى على الباب وهو ينظر إلى القطة التي أخذت تبتسم دون أن يفتح أحد. لدى عودته إلى البيت والقطّة تتبعه، رأى أحد جواره يخرج من البيت الذي يقع يمينه ويقول: هل يلزمك شيء يا باسم؟

قال: لا، شكراً.

صوَّب باسم نظرةً إلى القطّة التي بادلته النظر للحظات، ثم مضى إلى الداخل دون أن ينبس ببنت شفة، لكن القطة قالت: لم تصدّقني يا باسم.

قال: تعجَّبتُ من ذلك، وأردتُ أن أتأكَّد.

قالَت: نحن القطط لا نخفي شيئاً، نقول ما في قلوبنا.

قال وهو يهزّ رأسه وينظر إليها: أنتِ رائعة يا قطَّتي الجميلة.

قالَت: ما دمتَ تأكَّدت، أقول لك بأن البيت الذي يلي بيت جارك من اليمين، فيه أناس ولكن لم تفح من بيتهم رائحة طعام، وسمعتهم منذ قليل يقولون بأنَّهم لا يملكون شيئاً، حتى الغاز نفد عندهم ولا يملكون ثمن جرَّة غاز.

في تلك اللحظات تذكَّر باسم حصَّالته، صفنَ للحظات، ثم مضى إليها، أخرجها من خزانة الثياب، أحضرَ إبرةً وصار يسحب بِها بعض الأوراق النقدية التي كان قد طواها جيداً عندما أدخلها إلى الحصّالة. دسّ النقود في جيبه، اتَّجه إلى المطبخ، أخرج صحناً من المحاشي التي كانت أمّه قد أعدَّتها له، ومضى صوب ذاك البيت والقطَّة تُلاحقه.

كان الباب حديديّاً تظهر عليه آثار طلاءٍ قديم، طَرَقه عدَّة طَرَقات، بعد قليلٍ دَوى صوتٌ نسويٌّ مِن خلفه: مَن..مَن..؟

أنا باسم. اندفعَ صوتُه بشكلٍ تلقائي.

باسم ابن جارتنا حنان؟ جاء الصوت.

نعم.. نعم يا خالة. قال.

لا يدري لماذا في تلك اللحظة انتبه إلى عبارة: ابن جارتنا حنان. وخطر له بأن الصوت لو كان لرجلٍ، لقال: ابن جارنا أمين.

انفرج الباب، برز رأسُ امرأة مسنّة ذات وجهٍ أصفر نحيف. مدَّ إليها صحن المحاشي، ثم مدَّ إليها النقود، افترّ ثغر المرأة عَن بسمةٍ وقالَت: شكراً يا باسم بلّغ سلامي وشكري لأمّك.

هزَّ رأسه وعاد إلى البيت وهو يعقد كفَّيه خلف ظهره، والقطَّة تمشي معه وبين لحظةٍ وأخرى تصوّب إليه نظراتها وتبتسم.

دخل الصالون وعلى الفور ألقى بجسده على الأريكة، نطَّت القطةُ واستلقَت بجانِبه، لبث يمسد على ظهرِها حتى غفيا معاً في قيلولة.

تابسا تتشمَّس

أمضى نحو ساعة في غفوته، وعندما استيقظ، تثاءب وصار ينظر حوله كما لو أنَّه في مكانٍ غريب. بعد لحظاتٍ نظر إلى القطَّة، رآها مغمضة العينَين. اكتشف ملامح جماليّة جديدة في وجهها وهي مغمضة العينَين. مدَّ يده ومسح على رأسها، على ظهرها. حرَّكت رأسها قليلاً، فتحت عينَيها،

نظرت إليه وقالَت بمواءٍ خافت: لم أكن نائِمة يا باسم، كنتُ مُسترخية، شخيرك المُرتفع لم يدعني أنام. كلّما كنتُ أغفو، كان شخيرك يُجفلني.

بعد لحظاتٍ وثبَت إلى الأرض قائلةً: أشعر بعطش، هل ملأتَ علبتي ماءً؟

قال: نعم.

نهض باسم أيضاً وراح يجرع كوباً مِن الماء، ثم فتح البرّاد، وقع نظره على حبّات من التفّاح الأخضر تلمع في صحنٍ، تعالى صوتُه مِن المطبخ: أتريدين تفّاحةً يا شيري؟

ماءت قائلةً: لا.

مدّ يده إلى تفّاحةٍ متوسّطة الحجم، ملأ قبضته بِها كما لو أنَّه قَطفَها من غصن شجرة، وغدا يقرضها وهو يؤوب إلى موضعه على الأريكة، فلم ير القطَّة، جلس وهو ينتظر قدومها، وعندما تأخَّرَت، ناداها: شيري.. شيري..

بعد قليلٍ تناهى إلى سمعه مواؤُها مِن الحديقة، فنهض ورآها ممدَّدة تحت أشعة الشمس.

قال: ماذا تفعلين هُنا يا شيري؟

قالَت وهي ما تزال ممدَّدَة على بطنِها: أتشمَّس يا باسم.

قرفصَ بمحاذاتها، فقالَت: أرتاح كثيراً عندما أستلقي تحت الشمس، وبعد أن أنهض وأنفض ما علق بفرائي، أشعر بلياقة، لكن نحن الآن في الشتاء والشمس لا تستطع إلاّ قليلاً، لذلك أراقبها وعندما أراها تسطع، أسارع وأتمدّد تحتها.

بعد قليلٍ، انقلبت على ظهرِها وغدت تعرض بطنها للشمس قائلةً: كانَت أمّي كل يوم تأخذني لنتشمَّس معاً، كانَت تقول لي: الشمس هي حمّامنا اليومي يا بنَتي.

عندما رآها مسترخية ومستمتعة بأشعة شمس الشتاء الخفيفة، نهض وقال: سأذهب لمراجعة دروس يوم الغد يا قطَّتي الغالية.

الفصل الرابع

حساب الغفلة

كان باسم جالِساً على الكرسي في غرفته يحمل بيده كتاب الجغرافيا حين تناهى إلى سمعه مواء تابسا بالقرب من الباب، فأدرك بأنّها تُريد أن تدخل. بعد لحظاتٍ لمح جسدها يدخل من الباب الموارب. نظرتْ إليه وقالت: ذهبتْ الشمس عَن الحديقة، ولكن أشعر بأنَّني أخذتُ كفايَتي منها.

أدرك باسم الذي كان مستغرقاً في دروسه بأن الشمس أصبحت على وشك الأفول، نظر إلى القطة التي قبعت على ذيلها وسط الغرفة وقال: لماذا تموئين يا قطَّتي عندما تصلين إلى الباب؟

قالت: أكره الغَفَلات بشدَّةٍ ولا أريد أن أُغافلك بدخولي، كانت أمّي دوماً تقول لي: كوني على حذر من الغفلة يا تابسا. أحياناً كنتُ أنهض في الليل وأراها مستيقظة، وعندما أسألها عن سبب يقظتها، تقول: سمعتُ صوتاً وخشيتُ أن يُغافِلنا أحد. ثم تضمُّني إليها وتموء قائلةً: نامي يا بنتي نامي حتى إذا غافلنا أحدٌ بضربةٍ، ستقع عليَّ قبل أن تصلكِ.

شرد باسم بكلامها، تخيَّل أنّه أحياناً عندما ينزل عَن الرصيف وهو يذهب إلى المدرسة، أو يعود منها، يمكن أن تُغافله سيارةٌ سواء من الخلف، أو من الأمام. استطردَ في شروده، تخيَّل نفسه عندما يبتاع البوشار، يفتح الكيس ويأكل دون أن ينظر إلى الصلاحية، قد يُغافِله البوشار بأن يكون فاسِداً، عندما يمشي بجانب سيارة واقِفة، قد تمتدّ يدٌ آثِمة منها وتختطفه، عندما يمشي في البيت أو في الشارع دون أن ينظر أمامه جيداً، قد تُغافله قدمه بزلةٍ، عندما يستخدم الكهرباء دون حذر، قد تُغافله بصعقةٍ، عندما يترك نافذة غرفته مُغلقة لوقتٍ طويل، قد يُغافله الأوكسجين بالنفاد.

مكانة الأبوَين

نهض عَن الكرسي وقال: تأخَّر أبواي، كان لا بدَّ أن يأتيا الآن. اشتقتُ إليهما كثيراً يا شيري، البيت باهتٌ دونهما، والوقتُ يمضي ثقيلاً.

قالت: أنا أيضاً اشتقتُ إليهما يا باسم.

تذكَّر جدَّته العجوز، وهي تُجلِسه بجانِبها، تحكي له الحكايات، كأن حكاياتها لا تنتهي. ينظر إليها ويتخيَّل أشخاص تلك الحكايات يتحرّكون، يتخيَّل ملامحهم. وجدَّته تحكي وتحكي، تشده للاستماع إليها.

خرج من الغرفة متَّجهاً إلى الشارع، لحقته القطَّة، انتصبَ واقِفاً على الرصيف أمام الباب، وقفت القطَّة إلى جانِبه. لبث نحو نصف ساعة ينظر إلى السيارات التي تمرّ في الشارع حتى توارى قرص الشمس في المغيب، وبدأ الغسَقُ يفترش الطرقات. دلَفَ البيت والقطَّةُ تتبعه، خطر له أن يتَّصل بهما في الهاتف، تذكَّر بأنّهما تركا هاتفيهما في البيت.

قعدَ على الأريكة في لهفة الانتظار، قال: كان من المُفترَض أن يكونا في البيت الآن.

قالَت: ربما حصل معهما طارئ يا باسم، لا تقلق.

وضع وجهه في راحتَي كفّيه ولبث صامِتاً.

بعد نحو ساعةٍ من الانتظار، ماءت القطَّة بفرح: أظن بأنَّهما أتيا، سمعتُ صوت أمّك وهي تتحدَّث مع أبيك.

وما لبثت أن هرعت إلى الخارج، هرع باسم خلفها وقد تبدّدَ عنه القَلَق.

وقفا ثانيةً على الرصيف، كان الظلام قد أطبق على الطرقات، تقدَّمت سيّارةٌ بضوئِها المُشعّ ووقفت أمامهما، هرول باسم إلى السيارة الواقِفة، نزل منها أبواه، قبّلاه. قال أبوه وهم يمضون إلى الداخل: تأخرنا يا بُنَي لأنّ السيارة

تعطَّلت بنا في الطريق، انتظرنا حتى أتت سيارة أُخرى وجئنا بها.

قالَت أمُّه: طمئنّي عنك يا باسم، كيف أمضيتَ وقتك؟

قال: كنتُ أدرس، وأنتظركما. ثم نظر إلى القطَّة وقال: كانت القطَّة أيضاً تسليني.

في تلك اللحظات لفتت سبابته انتباهها، فقالَت: لماذا وضعت اللاصق على إصبعك يا باسم؟

قال: جُرِحَتْ عندما فتحتُ علبة السردين يا ماما.

فور دخولها البيت نزعت اللاصق واستبدلته بلاصقٍ جديدٍ وقالت: لابأس يا بُني جرحٌ بسيط، سيلتئم غداً.

أحسّ باسم بأن الدفء عاد إلى البَيت، أدركَ كم أن غيابهما كان ثقيلاً عليه، كما لو أنَّهما غابا شهراً، اكتشف للتو بأنّه لم يكن يعيش في بيتٍ، بل في كهفٍ مهجور كله صقيعٌ في صقيع، وفي لحظاتٍ خطر في باله صديقه في المدرسة (أيمن) الذي يعيش يتيماً بدون أمّ، تخيَّلَ معاناته اليوميّة في بيتٍ لا أمّ له فيه، تمتم في قرارة نفسه: كم أن الأم نعمة، كما أن الأب نعمة.

كان البيت ميتاً فعادت إليه الحياة، كان مُظلِماً، فأُضيءَ. لاحظ بأن القطّة أيضاً بدت سعيدة وتحتفي بعودتهما إلى البيت.

الفصل الخامس

نزلة برد على تابسا

منذ ذلك اليوم غدت العلاقة متينة بين باسم والقطّة، وعندما يكون في الشارع أو في أي مكانٍ آخر وتقع عيناه على قطَّة، يرى شيئاً من قطّته فيها. ذات يوم بينما كان عائداً مِن المدرسة إلى البيت، ورأى في طريقه طفلاً يحمل حَجَراً كي يضرب به قطّة، هرع إليه ومنعه من ذلك قائِلاً: لا تضربها.. سوف تتألَّم.

قال الطفل: وهل القطة تتألَّم؟

قال: تتألَّم أكثر ممّا نحن نتألَّم.

قال الطفل وهو يقذف الحَجَر على الأرض: لم أكن أعلم ذلك، كنتُ أظن بأن القطط لا تتألَّم عندما نضربها.

عند ذاك تذكَّرَ باسم عندما أخبرته قطَّته عَن الطريقة التي تجعل القطط تأتي إليه وتتحدَّث معه، فقرفص ونادى القطَّة، تقدَّمَت إليه والطفل يرنو إليهما باستغراب، قال باسم للقطَّة: هل تتألَّمين عندما يضربك أحد؟

صوَّبت إليه نظرةً وقالَت: أتألَّم كثيراً، وأشكركَ لأنَّك منعت هذا الطفل من ضربي بذاك الحَجَر.

قال الطفل: كنتُ قبل الآن كلّما رأيتُ قطّةً ضربتها بحَجَرٍ، أعدكِ أيتها القطَّة بأنَّني لن أضرب قطَّةً بعد اليوم.

قال باسم: هذا لا يكفي.

قال: ماذا بعد؟

قال: عليكَ أن تحب القطط، وعندما ترى أحداً يريد الاعتداء على قطّةٍ، تمنعه.

قال: أعدك بذلك يا باسم.

عند عودة باسم مِن المدرسة إلى البيت، اتَّجه إلى قطَّته التي كانت قابعة في ركنها. كانت تتنفّس بتثاقلٍ وهي تخرخر، وبين لحظةٍ وأُخرى تعطس، وقد احمرَّت عيناها، قال: هل أنتِ بخير يا قطَّتي؟

قالت: منذ ليلة البارحة أشعر بدوارٍ وبصداعٍ في رأسي.

قال وهو ينظر إلى وجهها الذابل: لا تقلقي، عندما يعود أبي من العمل، سنأخذكِ إلى الطبيب البيطري.

عطسَت وماءت بصوتٍ هزيل: صحيح يا باسم ستأخذني إلى الطبيب البيطري حتى يُعالجني؟

قال: صحيح يا قطَّتي.

صمتت قليلاً، انهمرت دموعٌ من عينَيها وماءت: ليت أمّي وجدَت مَن يأخذها إلى الطبيب، لتعالجَت وشفيت من ذاك المرض الذي ألمّ بِها.

مسد على ظهرِها ومضى بحزنٍ إلى غرفته، استبدل ثيابه وجلس يعزف على البيانو المقاطع التي ترتاح لها شيري. يعزف والدموع تترقرق في مآقيه، وبين لحظةٍ وأُخرى يرمق الباب بنظرةٍ علّه يراها داخلة، لكن طال به الانتظار وهو يستأنف العزف وبين فينةٍ وأُخرى ينظر إلى الباب الموارب. عند ذاك أدركَ بأنّها لو كانت تجسر على النهوض، لأتت كعادتها وقبعت وسط الغرفة بصمتٍ وهي تنظر إليه يعزف. تناهت نبرات صوت أمّه في تلك اللحظات مُتداخِلةً بإيقاع الموسيقى: الغداء جاهز يا باسم.

توقَّف عَن العزف، مسح دموعاً كانت قد انزلقت إلى أرنبة أنفه وخرج من الغرفة، اتَّجه إلى شيري في ركنها، نظر إلى عينَيها المُتعبتَين ومضى دون أن يتكلَّم وهو يبلع ريقه عَن غصَّةٍ.

جلس على كرسيّه إلى مائدة الغداء، لاحظ أبوه علامات الحزن بادية على سحنته، قال: ما بكَ يا باسم، هل تُعاني مِن شيء؟

قال: لا يا أبي، لكن شيري تبدو متعبة جداً ولا أعرف ما أصابها. انهمرت دموعٌ من عينَيه وأردف يقول: خائفٌ عليها يا أبي.. خائفٌ كثيراً. ثم تخيَّل البيت دون قطَّة، تخيَّل أنه يسمع مواءها من بعيدٍ.. بعيد.. وهو يمشي بهدي المواء.. يمشي ويُنادي بصوتٍ ممطوط: تابساااااا.. تابساااااا.. يلج الشوارع الخلفيّة.. يمضي شطر ساحةٍ مخضرَّة.. يراها في وهدةٍ مسترخية بين الورود. عندما تراه، تنهض وتستقبله، تدعوه للجلوس معها وحولهما ترفرف فراشات ملوَّنة.

بعد أن فرغوا مِن تناول الغداء، ذهبوا إليها جميعاً، كانَت مستلقية على بطنها ترتجف وتُصدر خرخرةً مُرتفعة، أوقفها باسم على قوائِمها، لكنَّها بعد لحظات ارتمَت على الأرض وعطست دون أن تقوى على الوقوف.

قالَت أمُّه: يبدو بأنَّها مريضة يا أبا باسم، ارتح قليلاً وخذها للطبيب البيطري، قطَّتنا غالية وقد اعتدنا عليها.

قال: رغم أنّني عدتُ من العمل، ومتعب جداً، لو كانت عيادة الطبيب مفتوحة الآن، لأخذتها. سأرتاح نحو ساعة، عندها تكون العيادة قد فتحت.

عندما رأى باسم أبوَيه يتّجهان إلى غرفتهما، اتجه إلى ركن القطّة التي لم تكن قد أكلت الطعام.

قال: اطمئنّي يا شيري، سنأخذكِ اليوم إلى الطبيب البيطري.

نظرت إليه بعينيها نصف المفتوحتَين، هزَّت رأسها بالكاد.

قال: ستشفين يا شيري، وسأعزف لك المعزوفات التي تحبينها، سنخرج معاً إلى الشارع، نسهر معاً، تتحدَّثين لي عنكِ، أتحدَّث لكِ عنّي. لا تخافي يا شيري، لن أتخلّى عنكِ لحظة واحدة.

كانت القطة تفتح عينَيها بالكاد وتنظر إليه، دون أن تجسر على نبرة مواءٍ واحدة.

تناهى صوت أمّه: ألن تشرب الشاي بعد القيلولة يا أبا باسم.

قال: لا.. سنأخذ القطة إلى الطبيب وفيما بعد سأشرب الشاي.

أدرك بأن أباه قد نهض ويرتدي ثياب الخروج. فنهض بسرعةٍ إلى غرفته، ارتدى ثياب الخروج على عجل، وجاء ليرى أبوَيه بجانب ركن القطة.

تقدَّم إلى القطّة وحملها على ذراعَيه، قالت أمّه: انتظر يا باسم.

وما لبثت أن أتت بعد لحظاتٍ ببطّانيّة، لفَّت بِها القطَّة قائلةً: الطقس بارد يا بُني.

ضمَّها مع البطّانية إلى حضنه ولحق بأبيه الذي كان قد وصل بقامته المتوسّطة إلى الباب الخارجي للبيت.

تابسا عند الطبيب البيطري

أدخلا القطّة إلى الطبيب البيطري الذي كان يجلس خلف طاولته، قال وهو ينظر إلى القطة: ما بِها هذه القطة الجميلة؟

قال باسم: تشعر بدوار وبصداعٍ في رأسها.

قال الطبيب: كيف عرفت؟!

ارتبكَ قليلاً وقال بتلعثم: عرفت يا دكتور.. هي أخبرَتني.

هزَّ الطبيب رأسه عدَّة هزّات إلى الأسفل، ونهض من خلف طاولته قائلاً: هل تقيّأتْ؟

قال باسم: لا يا دكتور.

وضع الطبيبُ كمامة على أنفه، ارتدى قفازاً بلاستيكياً رمادي اللون، علَّق السمّاعة في أذنيه. تناول القطة من باسم،

مدّدها على السرير وغدا يمرَّر الطبلة على أنحاء جسدِها، وهو يرهف السمع. فتحَ عينَيها بشكلٍ جيِّدٍ، حدّق فيهما من خلف نظارته، هزَّ رأسه عدَّة هزّات ومدَّ يده إلى قنديلٍ كان على رفٍّ خلف الطاولة، سلَّط الشعاع على أذنَيها وأنفها مِن الداخل وهو ينظر بإمعانٍ.

وضع كفّه على بطنها، صار يضرب برؤوس أصابع كفّه الأخرى على ظاهر الكفّ، سحب شفته السفلى إلى داخل فمه، حمل القطّة، غدا يُحرّكها بين يدَيه كما لو أنّه يكيلها، وضعها على ميزانٍ الكترونيٍّ كان بجانب طاولته، تمتم وهو ينظر إلى المؤشّر: وزنها 4 كيلوجرام، هذا مُناسب لعمرها الذي يُشارف على السنتَين. أردف يقول: وضعها الصحّي لا بأس به، ولكنَّها تعرَّضَت لنزلة بَرد.

انشرح صدر باسم عند سماعه كلام الطبيب ونظر إلى القطَّة مبتسماً، أبرزَ لسانه لها بحركةٍ خاطِفة، فابتسَمت القطَّة وأبرزَت كذلك لسانها له بذات الحركة.

قال الطبيب وهو يمضي بقامته المشدودة إلى الطاولة: لا بدَّ من تأمين مكانٍ دافئٍ لها في البيت، ولا يجوز أن تشرب الماء البارد، بل الماء الفاتر، ويُستَحسَن هذا الأسبوع أن تشرب كل يومٍ كأسَين مِن الحليب صباحاً ومساءً.

أخرج حقنةً وعلبة كحول مِن درج الطاولة، بلَّل قطعة قطنٍ بالكحول، مسح بها بقعةً من ظهر القطّة بالقرب من رقبتها، وضع عليها منشفةً سميكة، وطلب من الأب أن يمسكها بشكل جيِّدٍ من خلال المنشفة قائلاً: لا تتركها مهما فعلَت، لأنَّها سوف تتألَّم ويمكن لها أن تنتفض وتخدش.

حقنها برفق والأب يثبت يدَيه على جسدِها الذي غدا يتحرَّك، وباسم ينظر إليها وقد اتَّسعَت عيناه. أفرغ الطبيب محتوى الحقنة في جسدِها، ثم وضع قطعة قطن على موضع الحقنة وقال: خلال أسبوعٍ مِن العناية ستشفى القطَّة وتعود أفضل مِمّا كانَت، وإذا ظهرتْ عليها أيَّة أعراض غير طبيعيَّة، اجلبوها إليّ على الفَور.

تابسا تتماثل للشفاء

لفَّها باسم مرَّة أُخرى بالبطّانية وأعادها إلى حضنه وهو يمسح على رأسِها. خرجا مِن العيادة ورجعا على الفَور إلى البيت.

قالت أمّه لحظة دخولها إلى البيت: طمئني يا أبا باسم، كنتُ قلقة على القطة.

قال: يبدو بأنّها تعرَّضت لنزلة برد، حقنها الطبيب وطمأننا عليها.

قالت: للتو عرفتُ بأن القطّة أصبحت جزءاً مِن البيت، كان مكانها فارِغاً، اعتدتُ أن تبقى هي معي عندما تكونان خارج البيت، فتجعلني أشعر بأنّني لستُ لوحدي.

في تلك اللحظات سارع باسم في فَرشِ البطانيَّة على أرضية الركن، أعدَّ لها كأساً من الحليب، سَكَبه في صحنٍ ووضعه بجانبها، ثم ما برحَ أن ملأ علبتها بماءٍ فاتر.

قالَت القطة: أشكركَ يا باسم، لقد أتعبتك اليوم.

مسح على رأسها وقال: لماذا تعرَّضتِ للبَرد؟

قالَت: شعرتُ بملل مِن البقاء في البيت، فخرجتُ إلى الشارع أشمّ الهواء، كانت السماء ترعد بدون مطر، ابتعدتُ عَن البيت وقلت: لعلّي أرى صديقتي ستيلا مصادفةً في إحدى الشوارع وأتسلّى معها لبعض الوقت ريثما تعود من المدرسة، لكن فجأةً هطل المطر، وفي لحظاتٍ قليلةٍ أخذ يشتدّ، فسارعتُ بالعودة إلى البيت والمطر يهطل عليّ بغزارة، لا أعرف كيف أخطأتُ الشارع، فدخلتُ إلى شارعٍ آخر، وأضعتُ الطريق لأنَّني كنتُ مستعجلة للعودة.

صمتت قليلاً وأردفت تقول: صار المطر يهطل عليَّ وأنا أهيم في الشوارع حتى استطعتُ أن أصل إلى شارع البيت بأنفاسٍ مُتقطعة، كان البابُ مفتوحاً، فدخلت بسرعةٍ،

جلستُ في مكاني وأنا مُبلَّلة بالمطر وأرتجف حتى غفوتُ، وعندما فتحتُ عينَي، أحسستُ بألمٍ في رأسي كما أنه على وشك أن ينفجر، وشعرتُ بدوارٍ.

قال: كان عليكِ أن تنتظري حتى يتوقَّف المطر.

قالَت: كانت أصوات الرعود الشديدة تفزعني.

قال: لا تخافي، لقد طمأننا الطبيبُ عنكِ، وقال: نزلة برد.

قالَت: سمعته يقول ذلك وفرحت، كنتُ خائِفة بأنّني أُصبتُ بمرضٍ لن أشفى منه.

قال: هل تألمتِ عندما حقنكِ الطبيب؟

قالَت: نعم تألَّمت كثيراً عندما غرز الإبرة في جسدي، هذه أوَّل مرَّة أُحقَن فيها، أردتُ أن أنتفض وأقفز إلى الخارج، لكن أباك كان يمسك بي بشدَّة. الآن أشعر بأن الدوار غاب عنّي، ولم يعد رأسي يؤلمني.

قال: لا تخرجي من البيت هذه الأيام.

هزَّت رأسها وقالَت: لن أخرج.

ثم أردفَت بعد قليلٍ وقد لاحت بسمة على فمها: هل أنتَ خائِفٌ عليّ يا باسم؟

افتر ثغره عن بسمةٍ وقال: نعم خائِفٌ عليكِ يا تابسا.

قالت: لماذا تقول لي: تابسا.

قال: حتى نضحك.

قالَت: لا.. قل لي: شيري.. أحبّ أن تُناديني بهذا الاسم الذي أحببته.

قال: كيف لا أخافُ عليكِ وقد اعتدتُ أن أراكِ كل يومٍ في البيت وأحكي لك كل ما يحصل معي.

قالَت: أنا أيضاً اعتدتُ عليكَ يا باسم، ولو لم أحبّكَ كثيراً لَما علّمتك أسرار لغتنا، ولَما تحوَّل موائي إلى كلماتٍ في سمعك.

ولستُ أنا فحسب، بل عندما تسمع صوت أيّ حيوانٍ، سوف يتحوَّل صوتُه إلى كلماتٍ في سمعك ما دمتَ قد تعرَّفتَ على أسرار لغتنا.

ثم قالَت وهي تبتسم: عندما تهتُ في الشوارع، كنتُ أموء وأنا أقول بأنَّني تائِهة وبردانة، لكن لم يأبه بي أحد، تقدَّمت منّي قطَّة، لكنَّها لم تكن تعرف البيت، في تلك اللحظات تذكَّرتكَ وصرتُ أرفع موائي لعلَّه يصلكَ.

قال: لو وصلني، لكنتُ تركتُ كل شيءٍ وجئتكِ راكِضاً.

قالَت: عرفتُ بأن موائي لم يصلك، لكن لم أفقد الأمل حتى وصلتُ البيت ولم تكن قد عدتَ مِن المدرسة بعد.

باسم يقرأ

في تلكَ اللحظات، وبينما كانت أمّه تمضي نحو المطبخ لتعدّ العشاء، سمعته يتحدَّث مع القطَّة، فغرت فاها وهي تنظر إليه دَهِشةً، رجعت القهقرى، همسَت لأبيه: باسم يتكلَّم مع القطّة، وهي تتجاوب معه بالمواء. كان يقرأ كِتاباً، فوضعه على الأريكة ونهض، جاءا يستمعان إلى حديثهما مع بعضهما.

قال أبوه: سبحان الله كأنَّه يفهم على القطَّة، وكأنّها تفهم عليه.

قالَت: إنَّه متعلّقٌ بِها، أحياناً عندما تموء، ينهض ويقول بأن القطّة جائِعة، وأحياناً يقول بأنّ عبوتها فرغت مِن الماء.

عندئذٍ قال أبوه: ما أخبار قطَّتك يا باسم؟

نهض واقِفاً على قدمَيه وقال: إنَّها أفضل الآن يا أبي.

قالَت أمُّه: تعال يا بُنَي، اغسل يدَيك حتى تتعشّى، سأعدّ العشاء.

اتجه باسم إلى المغسلة، غسل يدَيه بالماء والصابون، وعاد يجلس مع أبيه بانتظار العشاء.

لفت نظره الكتاب الذي كان مقلوباً على وجهه على الأريكة، نظر إلى العنوان: (السهل يحترق). تذكَّر بأنّه منذ نحو أسبوعَين رأى ذات الكتاب. قال لأبيه: أطلتَ في قراءة هذا الكتاب يا أبي.

قال: هذه هي القراءة الثانية له يا بني، يحتوي على مجموعة من القصص التي تحتاج إلى إعادة القراءة. بعض الكتب يا بُني أشعر بأن قراءة واحدة لا تكفيها.

ثم أردف يقول: وأنت يا باسم ماذا تقرأ هذه الأيام؟

قال: رواية (الرياح في الصفصاف).

قال: كن شيئاً يا بُنَي، لا تكن لاشي، كن بصمةً، لا تكن رَقَماً، استمرّ في القراءة، لا تنقطع عنها.

قال: كل يوم لا أنام قبل أن أقرأ في غرفتي، انتهيتُ منذ أيّامٍ من قراءة رواية (الأمير السعيد).

تذكَّر مجموعة الكتب التي قرأها، الكتب التي تركت لديه انطباعاً، تعرَّف على شخصيّاتها. خطر له أن يعود إلى قراءتها بعد الانتهاء من دروسه، يكتشف فيها ما لم يكتشفه في القراءة السابقة.

الفصل السادس

مواء الإنذار

نهض باسم في الصباح، جاء يطل على القطَّة، ألفاها نائمة وقد وضعت يدها على عينَيها، ولَوَت ذيلها الحريري وجعلته كحاجزٍ أمام وجهها.

توقَف يتأمّلها للحظات، بدت مُستغرِقة في النوم. خَطا إلى المغسلة، فتح الصنبور، فاندلق الماء، رشق وجهه بعدَّة رشقات، دخل المطبخ، سخَّن الماء للقطّة حتى أصبح فاتراً، سكبه في عبوتها، أتى لها بشطيرة من الجبن.

عند ذاك تحرَّكَت القطَّة وفتحَت عينَيها، قال لها: صباح الخير يا شيري.

تثاءبَت، ثم تمطَّت وقالت: صباح النور يا باسم.

قال وهو يرى بأن الاحمرار قد زال عَن عينَيها: طمئنيني عنكِ.

قالَت: بخير، أشعر بأنَّني شفيت، لا تقلق عليّ.

تركها تأكل الشطيرة، وراح يتناول الإفطار مع أبوَيه.

قال له أبوه: ما أخبار قطَّتكَ اليوم يا باسم؟

قال: يبدو بأنَّها شفيت يا أبي.

بعد تناول الإفطار، تجهَّز باسم للذهاب إلى المدرسة، وقبل أن يخرج، جاء إلى القطَّة، لوَّح لها بيده، فلوَّحت له بيدها، وخرج إلى المدرسة مسروراً.

لدى رجوع باسم مِن المدرسة، رأى خالته في زيارةٍ إليهم، فقبَّلته وقالَت: كيفك يا باسم، اشتقتُ إليك.

قال: الحمد لله بخير يا خالة.

قالت: وما أخبار دراستك؟

قال: جيدِّة يا خالة.

كانت القطَّة تموء بشكلٍ متواصلٍ، حتى أنَّ أمَّه بدأت تتضايق من موائِها، وتُحاول أن تُسكتها، لكنَّها لبثت تنظر إلى خالته وهي تموء: مياوو.. مياوو.. مياوو.. مياوو..

قالَت أمّه: منذ أن دخلَتْ خالتُك البيت يا بُنَي وهي لم تتوقَّف عَن المواء، لا أدري ما الذي حصل لها، هذه أوَّل مرَّة أسمعها تموء بهذا الصوت الغريب حتى أنَّني ظننتُ في البداية بأنَّها ليست قطَّتنا، فذهبتُ ونظرتُ إليها وهي تموء في ركنها وتنظر إلي. وأحياناً تخرج وتقترب من خالتك وتموء ثم تعود إلى ركنها. قالَت خالتك بأنَّها ربما تكون جائعة،

ووضعتُ لها الطعام، لكنَّها لم تأكله، وبقيت تموء بهذا الصوت الغريب.

اتَّجه باسم إلى غرفته وهو ينزع عن ظهره الحقيبة، فلحقته القطَّة وقالَت: لماذا تأخَّرتَ يا باسم، كنتُ بانتظاركَ.

قال: ماذا حدث؟

قالَت: خالتك حامل يا باسم، سمعتُ نبض جنينها يتسارع، وهو متضايق جدّاً ويكاد أن يختنق، اذهب حالاً وقل لها كي تذهب بسرعة إلى الطبيب.

وعندما رأته يحاول أن يستبدل ثيابه، قالَت: فيما بعد يا باسم، الوقت يضيق على الجنين. عاد إلى خالته وهو ما يزال بثياب المدرسة

وقال لها: يا خالتي جنينكِ في حالة خطرة الآن، اذهبي فوراً إلى الطبيب.

نهضت خالته بذعر وقد ارتسمَت على محيّاها علامة تعجّب، فهي لم تُخبر أحداً في هذا البيت سوى أمّه، ألقت بنظرةٍ إليها، وكانَت واقِفة تسمع الكلام، فهزَّت رأسها إشارةً بأنَّها لم تُخبره.

إذ ذاك تعالى مواء القطَّة مرَّةً أُخرى بشكل مُتدافع، فقال: أسرعي يا خالَتي.

ارتدت أمّه ثياب الخروج على عَجَل، وخرجت مع أختها بسرعةٍ إلى عيادة طبيبة نسائيَّة.

أجرت الطبيبة الفحوصات لها، وبعد أخذ صورة للجنين، قالَت الطبيبة وهي تنظر إلى الصورة: نبض الجنين متسرّع جدّاً ولو لم تحضري اليوم، لربما فقدَ حياته، أو على الأقل أصابه تشوّه لا زمه مدى الحياة.

ثم وصفت لها بعض الأدوية، وطلبت منها أن ترتاح نفسياً وبدنيّاً، ولا تحمل أشياءً ثقيلة.

كان باسم يجلس في غرفته مع القطَّة ينتظران عودتهما، فقال وهو يمسد على رأسِها: كيف عرفتِ بأنّها حامل يا قطَّتي؟

قالَت: سمعتُ نبضات جنينها، ولم أرتح لتلك النبضات لأنَّها كانت سريعة، وأردفت تقول: عندما نشعر بخطرٍ يقترب مِن مكانٍ أو من أحد الأشخاص، نموء بشكلٍ مختلف عن المواء الطبيعي حتى ينتبهوا ويأخذوا الحذر، وأحياناً نبقى نموء طوال الليل ونحن ننذر بوقوع الخَطر.

صمتت قليلاً وأردفت تقول: ذات يومٍ كنتُ أمشي مع أُمّي في إحدى الحارات، وكان الوقتُ ليلاً؛ رأيتها تقف في إحدى الزوايا وتموء بشكل مُختلف، حتى صرتُ أخاف من موائِها

لأنَّني لم يسبق لي أن سمعتها تموء بذلك الشكل الغريب. عندما سألتها، أشارت إلى بيت قريبٍ منّا وقالت: الغاز يتسرَّب من الجرَّة في ذاك البيت، وإذا ناموا سوف يختنقون.

ثم طلبت منّي أن أشاركها المواء على نفس الإيقاع، وقالَت: هؤلاء الناس يسمحون لنا بالدخول إلى بيوتِهم، ويُطعموننا من طعامِهم، وعندما نلد في بيوتهم يحمون لنا صغارنا، ومن باب الوفاء لابدَّ أن ننذرهم بالمخاطر التي تكون على وشك الوقوع عليهم.

فعرفتُ منها ذلك وصرتُ أموء معها كما طلبتْ منّي.

بعد قليلٍ مِن الصمت ابتسَمَت وقالَت: نحن القطط فيما بيننا نسمي هذا المواء بـــ: مواء الإنذار. لذلك أحياناً تأتي قطط أُخرى وتُشارِك في هذا المواء.

قطعَت كلامها بغتةً وقالَت: هيا بنا، وصلتْ أمّك إلى بداية الشارع، أسمع صوتها الآن وهي تتحدَّث مع خالتك.

الفصل السابع

ليلةٌ ليلاء على تابسا

أصبح الوقتُ متأخّراً مِن الليل، والصمت يطبق على البيت، وما تزال تابسا تتقلَّب دون أن يُغمَض لها جفن.

كانَت تشعر بضيقٍ شديدٍ يكتم على صدرها، هذا الضيق الذي أحسَّت به منذ بداية الليل، وأخذ يتصاعَد ساعةً بعد ساعة.

همهمَت: يا لها مِن ليلةٍ ثقيلة.

نهضت خارجةً مِن ركنِها، خطَت ببطءٍ في ردهة البيت الصامت، وما لبثت أن اتَّجهَت إلى الحديقة لعلَّ ذلك يُخفّف عَنها.

وقفت في الحديقة المزوّدة بإضاءةٍ خفيفة، تذكَّرت أن باسماً قال لها قبل يومَين: ذهب البرد يا قطَّتي الجميلة، وجاء الربيع.

نظرت إليه وقالَت: كان الشتاء بارداً جدّاً، عندما كنتَ تذهب إلى المدرسة، كنتُ أخاف عليكَ كثيراً من البرد.

قال: أنا أيضاً كنتُ أخاف عليكِ من البرد، خاصّةً بعد مَرَضكِ.

لبثت واقفةً في الحديقة الغارقة في السكون وهي تشمّ الهواء النقي، ثم راحت تداعب برأسها ويدَيها بعض النباتات الوارفة لكن دون جدوى. نطَّت إلى الحائِط، أحسَّت برغبةٍ في المشي في صمت الليل والشوارع الخالية مِن حركة الناس، لكنَّها لم تمتلك الشجاعة، خافت أن يهجم عليها أحد الكلاب؛ تذكَّرَت أنَّها منذ مدَّةٍ عندما كانَت عائِدة إلى البيت وكان الظلام قد خيَّمَ على الطرقات، وفجأةً هجم عليها كلبٌ، فهرعَت كسهمٍ طائشٍ، والكلب يعدو خلفها، وقبل أن يصلها، توقَّفت واستدارت بسرعةٍ وهي تُصدر هسهسةً وتُكشّر عن أنيابها وقد انتصبَت أذناها إلى الأعلى.

توقَّفَ الكلبُ وهو يُحدّق بها.

بعد لحظاتٍ استدارَت وهرعَت بكل ما أوتيَت مِن سرعة، عاد الكلب يعدو خلفها بسرعةٍ حتى وصلت البيت ونطَّت إلى الحائِط، ثم قفزت إلى الحديقة وهي تلهث.

كان الهواءُ مُنعِشاً وهي تنظر إلى الأجواء الساكِنة، نطَّت إلى الشارع، ولبثت بجانب الباب دون أن تبتعد عنه، بعد قليلٍ عادَت إلى البيت، تحت وطأة أرقٍ شديد، مضت بتؤدةٍ حتى دخَلَت ركنها، تمدَّدَت على جنبها وأرادَت أن تغفو، لكن الأرق لم يبرحها، انقلَبَت إلى الجهة الأخرى. مضى الوقت دون أن

تغفو لحظة واحدة، فنهضت وخرجَت مرَّة أُخرى، اتَّجَهَت إلى غرفة باسم، دخلَت بهدوءٍ، رأته مُستغرِقاً في لفائق نومٍ عميقٍ وهو يشخر.

نطَّت إلى حافّة سريره، غدت تربت بيدِها على كتفه، تربت، وتربت، دون أن يستفيق. بعد قليلٍ تقلَّب في الفراش، فعادت تربت على كتفه برفقٍ مرَّةً أُخرى حتى انفرجَت عيناه بالكاد، وعندما رآها،

خرجت من فمه كلماتٌ متلعثمةٌ ثقيلة: أما زلتِ يقظة يا شيري؟

ثم انغلقَت عيناه مرّةً أُخرى.

فغدت تضرب برأسِها على وجهه وهي تموء بخفوتٍ: هيا قم.. لا أعرف ماذا أصابني الليلة، أشعر بأنّني أكاد أختنق.

تمتمَ بنبراتٍ ثقيلةٍ دون أن يتمكَّن مِن فتح عينَيه: ما بكِ يا قطَّتي؟

قالَت: انهض يا باسم، أنا متعبة جدّاً، ألا تشعر بي.

سحبَ نفساً عميقاً وهمهم: كيف لا أشعر بكِ يا قطَّتي الغالية.

قالَت: إذاً انهض، أحتاجكَ الآن أكثر من أي وقتٍ مضى.

فتح عينَيه، استجمعَ قواه، وبالكاد استطاع أن يبرك في السرير، نطَّت تابسا إلى حضنه، وقالَت: لا شيء بي يا باسم، أنا بخير، لكن لا أستطيع النوم الليلة، أشعر بخوفٍ وقلق لا أعرف من أيّ شيء.

قال وهو يمسد على رأسها: أغمضي عينَيكِ وستنامين يا قطَّتي.

ثم رفع رأسه وألقى نظرةً إلى الساعة وقال: ما تزال الساعة الثانية والنصف.

قالت: خائِفة يا باسم، لا تتركني، ثم بكت وقالت: إذا متّ هل ستنساني يا باسم.

قال: لماذا أنتِ متشائمة يا قطَّتي؟

قالَت: أخاف أن أموت وأنا منذ عدَّة أشهر فقط صرتُ في سن البلوغ، مسكينة أمّي أيضاً ماتت وهي في عزّ شبابها.

قال وهو يحدّق في عينَيها الجميلتَين: هل أنتِ الآن في سن البلوغ يا قطَّتي؟

هزَّت رأسها عدّة هزّات إلى الأسفل وقالَت: نعم، ذات يومٍ قلتُ لأمّي: متى سأصبح في سنّ البلوغ؟

قالَت: عندما تبلغين سنة ستُصبحين في سن البلوغ يا بنَتي.

غَدا يمسح على ظهرها بيده وهو يهدهدها قائِلاً: أذكر ذاك اليوم البارد عندما أتيتِ إلى بيتنا لأوَّل مرَّة، كم كنتِ صغيرة.

قالت: كنتَ أحياناً تأتي لي بالطعام وتبحث عني وأنت تقول: أين أنتِ يا قطيطَتي الصغيرة. وكنتُ أجيء عند سماعي لصوتك، لكن لماذا لم تعد تقول لي: يا قطيطَتي؟

قال: لأنَّكِ كبرتِ ولم تعودي صغيرة.

ثم تمتم بنبراتٍ ناعسة وهو ما يزال يمسح على ظهرها: نامي يا قطَّتي، ما أطيب النوم في هذا الوقت المتأخّر مِن الليل. تركها وجلس على الكرسي، امتدَّت أصابعه إلى مفاتيح البيانو برفقٍ، غدت تعزف تهويدة بإيقاعاتٍ خافتة، تراخت عينا تابسا وغفت بسَكينةٍ على إيقاعات التهويدة.

الفصل الثامن

باسم يذهب إلى القرية

في صبيحة وقفة العيد تلقّى أبو باسم اتِّصالاً مِن أخيه (سعيد)الذي يُقيم في القرية ودعاه أن يأتي مع عائلته لقضاء أيّام عطلة العيد في القرية، وقال بأنّه أولَمَ وليمةً ودعا إليها بعض الأهل والأقرباء حتى يجتمعوا مع بعضِهم بهذه المُناسَبة.

وعده بتلبية الدعوة، وعندما أغلق الخط، طلب من زوجته وابنه أن يتجهَّزا للذهاب إلى القرية، ثم أجرى اتِّصالاً مع أحد معارِفه الذي يعمل سائق تكسي، وطلب إليه الحضور فوراً.

في ذاك الوقت غَدا باسم في حيرةٍ من أمره لأنَّ تابسا كانَت خارج البيت، وصار بين دقائق وأُخرى يخرج إلى الشارع وينظر علَّه يلمحها كي يُخبرها بذهابه ويودّعها، تخيَّل بأنَّه يقول لها: سأمضي هذه الأيام في القرية يا قطَّتي، سأشتاق لكِ كثيراً. ثم يقول بغصَّةٍ وهو يُقبّلها: كوني حذرة على نفسكِ بغيابي.

فتقول له: أنتَ أيضاً يا باسم كن حذراً على نفسك وأنتَ بعيدٌ عنّي، سأعدّ الساعات حتى ترجع.

بعد نحو ساعةٍ وبينما كان باسم واِقفاً أمام الباب، وقفت السيّارة التي ستقلّهم بمحاذاة الرصيف، وجاء صوت السائق: كيفك يا باسم؟

نظر إليه وقال: الحمد لله يا عم.

قال: قل لأبيك بأنّني جئت.

استدار داخلاً البيت، وبعد قليلٍ خرجوا، جلس أبوه في المقعد الأمامي بجانب السائق، وجلس مع أمّه في المقعد الخلفي للسيارة التي ما لبثت أن انطلَقت بهم إلى القرية. غدا باسم وهو في السيارة يلتفت إلى الخلف تارةً وينظر إلى الطريق تارةً أُخرى لعلَّه يلمح القطّة حتى انعطفت السيارة عَن الشارع ومضت في كبد طريق الأوتوستراد السريع. عند ذاك استقرّ باسم في جلوسه وهو ينظر من نافذة السيارة ويشعر بالمدينة تعدو أمام عينيه.

عندما رجعت تابسا مِن مشوارِها، فوجئَت بصمتٍ يطبق على البَيت كلّه، في البداية ظنَّت بأنَّها متوهّمة، صارت تموء بخفوتٍ، ثم شيئاً فشيئاً ترفع مواءها دون أن تسمع صوتاً أو حركةً.

بهتت وهي في هيبة صمت البيت، غدت تلتفت حواليها، اتَّجهَت إلى غرفة باسم مسرعةً وهي تموء بتلاحق، كانت الغرفة خالية كما لو أنّه هجرها ولن يعود إليها ثانيةً.

علَت غصَّة إلى حنجرتها، تركت الغرفة بخيبةٍ، جابت البيت كله وهي تموء دون أن ترى أحداً.

قبعت يائسةً على ذيلها وهي تُحاول أن تميِّز الأصوات التي تتناهى إلى سمعها مِن الخارج، لبثت تنصت بكل ما أُوتيَت مِن تركيزٍ. بعد قليلٍ خرجت تجوب الشوارع شارعاً شارعاً، توزّع نظراتها على المارَّة لعلَّها ترى أحدهم، أو تسمع لأحدٍ منهم صوتاً مِن مكانٍ ما، غدت كلّما ترى ثياباً تشبه ثياب أحدهم من بعيد، تهرع إليه وتُفجَع بخيبةٍ.

لبثت حتى العصر تجوب الشوارع البعيدة والقريبة دون أن تترك شارعاً في الحي لم تدخله عدّة مرّات، تقف بين حينٍ وآخر تستمع إلى الأصوات القادمة إلى مسمعها من البيوت، ثم عادت إلى البيت منهكة ومعدتها تقرقر جوعاً.

بدخولِها إلى الركن المُخصّص لها في البيت رأت التونة في صحنها،

تذكَّرَت بأنَّها عندما أكلت معه السردين، قالَت: أحب التونة أيضاً يا باسم.

تخيَّلته يفتح لها علبة، يفرغها في الصحن قبل أن يخرج من البيت مع أبوَيه.

شرعَت تأكل دون شهيَّة لسدّ الجوع، وبعد أن انتهت، استلقت على بطنِها وهي تشرد بهم: أين ذهبوا فجأةً، هل تركوا البيت ولن يعودوا إليه، لم يسبق لهم أن فعلوها قبل الآن طوال فترة وجودي هُنا. بدا البيتُ على سعته يضيق بِها، مضى الوقتُ وبين لحظةٍ وأُخرى تتوقّع دخولهم إلى البيت بغتةً، تصيخ بسمعها علّها تسمع صوت أحدهم.

لبثت متيقّظةً حتى وقتٍ متأخّرٍ مِن الليل، نال منها الإرهاق والنعاس، ولا تدري كيف غفت، وعندما فتحت عينَيها، أحسَّت بفزعٍ، نهضت تجوب أنحاء البيت لعلَّهم قد عادوا دون أن تشعر بهم. خرجَت إلى الحديقة، رأت الضوء بالكاد ينتشر، أدركت بأن الصباح قد جاء وأنَّهم أمضوا ليلتهم خارج البيت.

وقفت في صمت الحديقة تتأمَّل شجرة الكرز وبعض الأعشاب، بعد قليلٍ نطَّت إلى الحائِط، أرادت أن تقفز إلى الشارع، لكنَّها تردَّدَت عندما رأت بعض الكلاب يمشون وسط الشارع الخالي مِن حركة الناس. تقافزت كلمات أمّها

إلى سمعها: ابتعدي عَن الكِلاب يا بنَتي، إذا رأيتِ كلباً في شارع، ادخلي في شارعٍ آخر.

يومها قالَت لها: هل الكلاب تأكلنا يا أمّي؟

قالَت: لا، لكنَّها تُريد أن تُرعبنا، وتُسبّب لنا الإزعاج، إنَّها فقط تُطاردنا، ونحن لا نملك سوى أن نهرب عندما نتعرَّض لشنّ هجماتها المفاجئة علينا.

قالت: لماذا تفعل الكلاب بنا هذا يا أمّي؟

قالَت: اطمئنّي يا بنَتي، طوال وجودي في هذا الحي منذ ولدتني أمّي هُنا، لم يسبق لي أن رأيتُ أو سمعتُ أن كلباً أكل قطَّةً، لكن ربما تعتقد بأنَّنا نأكل أرزاقها، لذلك لا تحب رؤيتنا.

ثم ضحكت وقالَت: نحن أيضاً لا نريد رؤية الكلاب.

عند ذاك شردت قليلاً وقالَت: وهل تأكلها حيواناتٌ أُخرى؟

قالَت: تسألين كثيراً يا بنَتي، أوجَعتِ رأسي بأسئلتكِ.

قالَت: أريد أن أعرف كل شيءٍ يا أمّي.

قالَت: لا يا بنَتي، نحن والكلاب لا تأكلنا حيواناتٌ أُخرى، ولم يسبق لي أن رأيت أو سمعتُ أن حيواناً أكل كلباً.

قالَت: لكنَّها تستطيع أن تأكلنا.

قالَت: يا بنَتي دعيني، لقد تعبتُ من أسئلتكِ.

قالت: أريد أن أعرف يا أمّي.

قالَت: لا تأكلنا الكلاب، لأنَّ لا أحد يأكلها.

هزَّت رأسها وهي منتصبة على الحائِط تسترد كل تلك الذكريات الحميميَّة مع أمّها، نظرت يَمنةً ويَسرةً علَّهم يظهرون، ثم ما لبثت أن نطّت إلى الحديقة، وصارت تمشي بين الأعشاب وهي تلوي ذيلها، وتضرب رأسها بجذع شجرة الكرز.

عندما دبَّت حركة الناس في الشارع، نطّت مرَّة أُخرى إلى الحائِط، قفزت إلى الشارع وقبعت على ذيلها أمام الباب وهي تنظر إلى الناس والسيارات الماضية في الشارع ذهاباً وإيّاباً.

تقدَّم رجل قصير القامة في الشارع وهو يدفع عربته المحمّلة بالتفّاح، نظر إليها وقال: بس.. بس..

نظرت إلى لحيته التي ملأت صفحتَي وجهه وماءت: مياو.. مياو..

مضى الوقت وهي توزّع نظراتها وتنصت بأذنَيها حتى أحسَّت بضجر، فهبَّت واقِفةً، أنفضت جسدها ومضت تجوب الشوارع بكآبةٍ وهي تنظر حواليها، تتخيَّل هيئاتهم، حركاتهم، نبرات أصواتهم، حيوية البيت بوجودِهم.

لبثت في الطرقات والأزقّة حتى تماثلت الشمس للمغيب، فعادَت على أمل أن تُفاجأ بوجودِهم في البيت، لكنَّها ازدادَت كآبةً على كآبة عندما وجدت البيت ما يزال يغرق في صمتٍ كما لو أنّه كهف في بَيداءٍ خالية. بغتةً ماءت بعصبيَّة كأنَّها أرادَت أن تُفرّغ شحنة الكآبة عن نفسها، ثم راحت تضرب برأسها على جذع شجرة الكرز، تجري من بداية الحديقة إلى نهايتها وهي تصدر مواءً غريباً، قفزت إلى جذع الشجرة، غدت تتسلَّق الغصون، لبثت على أحد الغصون عدَّة دقائق تستردّ أنفاسها، ثم نزلت بتؤدة.

رائحة باسم

عندما دخلت البيت من النافذة الصغيرة التي تبقى مفتوحةً لها كي تدخل وتخرج منها، هرولَت إلى غرفة باسم، شمَّت رائحته القويّة منها،

أحسَّت بغصّةٍ ثقيلةٍ تعتلي حنجرتها، رمقت السرير؛ تخيَّلته مستلقياً على ظهره تارِكاً ذراعَيه إلى جنبَيه، نظرت إلى ثيابه، تخيَّلته يرتديها، إلى ساعة الحائِط، تخيّلت نظراته إليها، إلى حقيبته، تخيَّلته يحزمها على ظهره، إلى البيانو، تخيَّلت عزفه الذي يتسرَّب إلى كل ركنٍ في البيت. قفزت إلى البيانو واستوَت عليه، ضربَت بيدَيها على المفاتيح، أصدرت

نغمات موسيقيّة. تداخلَ مواؤها مع أصداء النغمات: أين أنتَ الآن يا باسم.. لماذا تركتني وحيدة، ألا تعلم بأن حياتي دونك باهتة لا رونق، لا حيويَّة فيها.

لا تدري كيف غفت على البيانو، حتى استيقظَت على صباحٍ آخرٍ، صباح لا فرق بينه وبين المساء، كل الأوقات غدت باهتةً بالنسبة إليها ولا تحمل جديداً. انطفأت في نفسها شعلةُ الإقبال على الحياة، حتى الشوارع تبدو جامدة وهي تمشي فيها بكآبة، تمشي حتى ينال منها الإنهاك وتؤوب بكآبةٍ أكثر مِمّا خَرجَت بِها، تؤوب إلى فراغ البيت الموحش، تجوب كل ركن من أركان البيت وهي تموء، تموء، تموء، تصرخ مواءً لعلَّها تسمع صوتاً، لعلّها تسمع حركةً، لكنَّه الصمتُ المملُّ ذاته الذي يُخيِّم، الصمت الذي باتَ مُرِوعاً بالنسبة لها.

في تلك اللحظات الأليمة تمنَّت فيما لو لم تتعرَّف عليه، فيما لو لم تتعلَّق بِه كل هذا التعلّق، واكتفَت ببقائها معهم في البيت كما في عهدها السابق.

رفعت يدها، مسحت بِها دموعاً اهدَودَرَتْ من عينَيها، تخيَّلته في كل ركنٍ من أركان البيت، استردَّت صوته وكلماته.

قَفزَت إلى الأرض، بَرَحَت الغرفة، تناهى إلى سمعها مواء صديقتها ستيلا مِن الشارع. جمدَت في أرضِها، خال لها بأنّها توهَّمَت سماع المواء. تعالى مواء ستيلا مرَّةً أُخرى، سرت نسمة نشوة في أوصالِها وانطلقت مسرعةً إليها.

كانت ستيلا التي تماثلها في العمر، ذات الفروة الرمادية المخطّطة بخطوطٍ بيضاء، والعينَين اللوزيتَين واقفة على الرصيف، تبدو رشيقةً وممتلئة بالحيوية.

عندما وقعت نظرات ستيلا عليها، ماءت: ما بك يا تابسا، هل أنتِ مريضة؟!

دنت بوجهها إليها، وماءت: كما لو أنك كنتِ تعرفين مدى حاجتي إليكِ يا ستيلا.. أنا تعيسة يا صديقتي. مواؤكِ نفَّس عنّي قليلاً.

دعتها للدخول إلى البيت، استغربت ستيلا لأنّها المرة الأولى التي تدعوها، فنطّتا إلى الحائِط، وقفزتا إلى الحديقة.

ماءت ستيلا: ألا أحد في البيت يا تابسا؟

ماءت: لا.

ماءت: أين ذهبوا؟

ماءت: ليتني عرفت، هذا هو سبب كآبتي.

ماءت: لماذا كآبتك؟!

ماءت: اشتقتُ إلى باسم كثيراً، اعتدتُ عليه.

عانقتها وماءت: لا عليكِ يا صديقتي، سيعود، لا بد أن يعود.

إرضاء تابسا

مضت أربعةُ أيّامٍ مِن انتظارٍ وقلقٍ وهواجس، أربعة أيّام أحسَّت بأنَّها كبرت فيها أربع سنوات، بل تحوَّلَت إلى قطَّةٍ عجوزٍ.

في صبيحة اليوم الخامس، وبينما كانَت قابعة أمام الباب تمدّ نظراتها إلى الشارع، ترمق المارَّة، السيّارات؛ انعطفت سيّارة قادمة وتوقَّفت بمحاذاة الرصيف، نهضت وتقدَّمت إلى السيارة، خفق قلبها خفقة فرح، عندما رأتهم ينزلون من السيّارة. لا تدري ماذا حصل لها عندما التقت عيناها بِه، أحسَّت في لحظاتٍ بأنَّها تطير في السماء، فها هو قد عاد، عاد سليماً إليها. لحظة نزوله مِن السيّارة أشار لها بيده، تقدَّم إليها في عجلةٍ، لكنَّها استدارَت ونطَّت إلى الحائِط وراحت تقبع في ركنِها وقلبها يهبط من شدَّة الفرح.

تعجَّبَ باسم عندما رأى ذلك، لكنه لحقها مهرولاً إلى الداخل، عندما وقعت عيناه عليها عَن قُرب وهي في ركنها،

صُدِمَ بمنظرها الهزيل ووجهها الشاحب، تقدَّم إليها أكثر كي يحملها، فنظرت إليه شزْراً وأدارت ظهرها، صار يرمقها بنظراته وقد طَوَت ذيلها، ورفعت أذنَيها إلى الخَلف.

قال: لم يكن الأمر بيدي يا شيري، أحضر أبي السيارة ولم يكن أمامي سوى أن أصعد، انتظرتكِ حتى آخر لحظة، لكنكِ كنتِ خارج البيت.

لبثتْ صامتة وهي توليه ظهرها.

قال: لم أنسكِ يوماً واحِداً، ليس يوماً واحِداً، بل ساعةً واحدةً، كنتُ أفكّر بكِ وأقول: هل هي بخير، هل هي في البيت أم خرجت، هل نامت جيداً، هل أكلت، هل شربت، هل تفكّر بي كما أفكّر بِها؟

كل هذه الأسئلة كانت تخطر لي، لو كان الأمر بيدي، لعدتُ من أوَّل يوم، بل صدّقيني لو كان الأمر بيدي، لَما ذهبتُ معهما، وأمضيتُ العيد معكِ وكنّا سنخرج إلى الحدائق وأركبكِ معي المراجيح.

تقدَّمَ إليها خطوةً أُخرى، لكنَّها التفتت ونظرت إليه والدموع تنهمر من عينَيها وأومأت إليه برأسها كي يخرج.

استجاب لها واتَّجه على الفور إلى غرفته وهو يتخيَّل كيف أنّها هزلت، وقد تقوَّسَ ظهرُها، وبرزت عظامٌ في وجنتَيها،

غدت كما لو أنَّها كتلة عظمية بِلا لحم، حتى شعرها بدا منفوشاً ولم تنظّفه، أمست قريبة مِن شبح قطّة، وقد زاغت عيناها وذبل فيها كل ذاك الجمال الساحر.

لم يسبق له أن رآها على ذاك النحو، حتى عندما فقدت أمّها، كانت هيئتها أفضل مِن الآن.

استلقى على سريره شارِداً ممتقع الوجه حتى ترامى إلى سمعه صوت أمّه كي يذهب لتناول الغداء، عند خروجه أطل على تابسا التي ما إن رأته حتى عادت وأولَت ظهرها إليه.

غسل باسم يدَيه ثم جاء يجلس على كرسيّه، عند ذاك قالَت أمّه وهم يتناولون الطعام: لاحظتُ أن قطّتنا هزلت كثيراً ربما يكون المرض قد عاد إليها.

قال أبوه: أنا أيضاً لاحظتُ كأن نصف وزنها سقط عنها، وأنت يا باسم؟

هزّ رأسه علامةً بالإيجاب وقال: نعم يا أبي هزلت كثيراً في هذه الأيام القليلة.

ثم نهض وهو يحمل قطعةَ لحمٍ، وضعها في صحن القطّة وعاد يأكل وما يزال ذهنه شارداً بِما آل إليه وضعُها.

في الليل تقلَّبَ باسم في الفراش مُحاولاً أن ينام، بَيدَ أنّ مظهر القطَّة لم يُفارِق مخيّلته، خرج من غرفته، كان البيتُ

صامِتاً لا حِراك فيه، دنا إلى ركن القطَّة، نظر في عينَيها الذابلتَين، ألقى نظرةً إلى الطعام، رآه كما هو لم تأكل منه شيئاً.

صوَّبَت إليه القطَّة نظرةً مطوَّلةً بعض الشيء، ثم ما لبثت أن استدارَت بوجومٍ وأولته ظهرها. رجعَ إلى غرفته مكدوداً، استلقى على سريره وهو يفكّر بِها حتى غفا.

في الصباح الباكر وقبل أن ينهض أبواه، خرجت تابسا من ركنِها وذهبت إلى غرفة باسم، نظرت إليه، كان مُستلقياً على سريره، ويصدر منه غطيط النوم.

تقدَّمَت ورفعت قائمَتَيها إلى طرف السرير وقفزت إلى جانبه، ضربت بيدها على كتفه، ضربت مرّة أُخرى، تحرَّك قليلاً وفتح عينَيه ليراها، قال وهو يوزّع نظراته في أنحاء الغرفة: هل أنا في حلم أم في يقظة؟

قالَت: أنتَ في يقظة يا باسم، جئتُ إليك باكِراً قبل أن يستيقظ أبواك، لقد سامحتك يا باسم، لكن أريد أن تعدني بأنَّك لن تفعل ذلك مرَّةً أُخرى، ألا ترى ما فعل غيابك المفاجئ بي؟

مسد على رأسِها وقال: أعدكِ يا قطَّتي بأنَّني لن أفعل ذلك مرَّةً أُخرى.

قالَت: لكن عرفتُ في هذه الشدَّة التي مرَّت عليّ كم أنَّكَ تُحبّني.

ابتسم ابتسامة سعيدة وقال: أنا أيضاً عرفتُ مدى محبّتكِ لي يا تابسا.

داعبَت خده بيدِها، فأردف يقول: اليوم هو أجمل يوم في حياتي لأنّنا تصالحنا، ولأنَّكِ ستعودين كما كنتِ في البيت، سنسهر معاً وتحكين لي حكاياتكِ.

لبثا يتحدّثان حتى جاء صوت أمّه وهي تناديه كي ينهض ويأتي لتناول الإفطار ويتجهَّز للذهاب إلى المدرسة.

الفصل التاسع

حمَّام تابسا

كانت أمّ باسم جالسة على كرسيٍّ في الحديقة تتأمَّل القطَّة التي تُداعب بعض الحشائش والأعشاب، وتتناهى إلى سمعها نغمات البيانو التي يعزفها باسم في غرفته.

في تلك اللحظات راودها شعورٌ بأنها ملكة تجلس في مملكتِها.

غدت تستمع إلى نغمات البيانو وتتمتم: غداً عندما يكبر باسم، سيحافظ على نقائه من التلوّث، وعندما يرى قدمه تكاد أن تزل به، سيتراجع وسيخجل من الكتب التي قرأها، من الموسيقى التي استمع إليها، الموسيقى التي عزفها. كل كتاب قرأه سيوجّه له العِتاب وينهاه، كل نغمة موسيقيّة استمع إليها أو عزفها ستمنعه.

رشفت رشفة من فنجان القهوة، ثم فتحت كتاب (ما الذي تتمناه لأطفالك فعلاً) كي تكمل قراءته من حيث وصلت يوم البارحة. تذكَّرت ما قاله مؤلف الكتاب: (سيرى أطفالك كلّ ما أنت عليه من خلال طريقتك في العيش وليس من خلال ما تقوله). كم توقَّفت طويلاً أمام تلك العبارة، كم أعادت

قراءتها، بل كم جعلتها تنتبه إلى أمورٍ لم تكن تعرها اهتماماً في تربيتها لباسم من قَبل.

بعدَ نحو نصف ساعةٍ مِن استرخائِها على الكرسي في رحابة الحديقة مستمتعة بالقراءة والتأمّل فيما تقرأ؛ ألفَت القطّة تدنو إليها بجسمها الممتلئ وهي تموء بلطفٍ، وما لبثت أن نطَّت إليها، فأخذتها بين يدَيها وصارت تمسح على شعرها وتقول: اعتدنا على رؤيتك كل يوم يا ذات العينَين الجميلتَين، هاهي صحَّتكِ قد تحسَّنَت.

رفعت القطة رأسها وصارت تنظر إليها وتبتسم، في أثناء ذلك وهي تمسد على ظهر القطّة، أحسَّت بخشونةٍ في فرائِها، نهضت وهي تحملها كما لو أنَّها تحمل طفلاً صغيراً، اتَّجَهَت بِها إلى الحمّام تاركةً صوتها يعلو على شكل صدى في أرجاء البيت: باسم.. باسم..

كان باسم ما يزال جالِساً في غرفته يعزف على البيانو، عندما تناهى إليه صوت أمّه، نهض على عجلٍ واتجه إليها، رآها تحمل القطّة وتمضي نحو الحمّام قائلةً: تعال يا بُني حتى تسكب لي الماء لأغسل القطّة.

ألقى نظرةً إلى القطَّة وابتسم، فبادلته البسمة وهي تبدو مسرورة.

حطَّتها في حوض الحمّام، سكب باسم الماء الفاتر عليها حتى تبلَّلَت بشكلٍ جيِّدٍ، ثم سكبت أمّه الشامبو على فرائِها، وصارت تمرّغ الشعر وتدلكه وباسم بين لحظةٍ وأُخرى يسكب الماء حتى اختفت عنها الرغوة.

وضعت المنشفة عليها وصارت تنشّفها جيداً، مشطَت شعرها بالفرشاة الناعمة، تَرَكَتها وهي تقول: حمّام الهَنا يا شيري.

مضت القطّة إلى الحديقة خَبباً، تفوح منها رائحة الشامبو العطرة، لبث باسم بين أن يعود إلى عزف البيانو، وبين أن يذهب إلى القطَّة، فامتدَّت به خطواتُه شطرَ الحديقة، رآها وقد استرخَت تحت ظلال شجرة الكرز.

جلس على ذات الكرسي الذي كانت أمّه جالِسة عليه وهو ينظر إلى القطَّة التي بدت رشيقة أكثر، وكل شيءٍ فيها يشعّ نضارةً، قال: أنتِ جميلة يا قطَّتي، لكن بعد الحمّام تُصبحين أكثر جمالاً.

قالَت: شكراً يا باسم. بعد لحظاتٍ أردفت تقول: أشعة الشمس شديدة الحرارة الآن، لا أستطع أن أتمدَّد تحتها، فجئتُ إلى هُنا.

ذاكرة الطفولة

انفرَجَ شقّ الباب الخارجي، دخلَ أبوه عائِداً مِن العمل، فنهض باسم وقال: الحمد لله على السلامة يا أبي.

قال: سلَّمك الله يا بُنَي. نظر إلى القطَّة وقال: يبدو بأنَّ أمَّك حمَّمَت شيري اليوم.

قال: نعم يا أبي.

قال: حسناً فَعَلَتْ. تقدَّم إليها، جلس القرفصاء بجانبها، مرّر يده على شعرِها الناعم.

بعد قليلٍ نهض وهو يقول: خذ بالك من قطَّتك يا بُنَي.

قال: حاضر يا أبي.

كم كان المنظر بسيطاً، لكنه كم كان عميقاً وعظيماً بالنسبة لأبيه وهو ينظر إلى باسم يُجالس قطَّته.

أدرك في تلك اللحظات أكثر من أي لحظات أُخرى في حياته مدى قيمة وجود طفلٍ في البيت، طفل مجرّد النظر إلى بساطته، إلى عفويته، يمكن أن ينفض عَن القلب جبلاً مِن الألَم. همهم في نفسه: البيت الذي لا نسمة للطفولة فيه، يبقى بارداً مهما كان به دفء، البيت الذي فيه نسمة طفولة واحدة، يبقى دافئاً مهما كان به برد.

أدركَ الأب في تلك اللحظات وهو يمدّ خطواته إلى الداخل، مدى حاجته للجلوس والحديث مع باسم، أدرك كم أن الكبير يحتاج إلى الصغير ربما أكثر مما يحتاج الصغير إلى الكبير.

راوده شعورٌ بالذنب والألم لأنَّه خلال الفترة الماضية لم يعط نفسه وقتاً كافياً للجلوس مع ابنه، وكذلك لم يعطه وقتاً كافياً للجلوس معه.

في المساء، خرج باسم مِن غرفته وجاء يجلس معهما في الصالون، أفسح له والده حيّزاً كي يجلس بجانبه على الأريكة، مازحه، قال له نكتةً، ثم أخذ يلعب معه لعبة المُصارعة الذراعية.

بعد ذلك عصب عينَيه، وأتت أمّه ببعض الأشياء التي لم يرها الأب قبل أن يعصب عينَيه. حمل باسم شيئاً، وصفه لأبيه كي يحزر ما هو الشيء. استمرّ يحمل ويفرز الأشياء التي يحزرها والتي لم يحزرها، وأمّه تنظر إليهما وتُشاركهما الضحك. ثم يزيح الأب قطعة القُماش عن عينَيه، ليرى النتيجة، فإذا كانت الأشياء المحزَرة ترجح على الأشياء غير المحزَرة، يكون هو الفائز، وإذا لم ترجح، يكون الخاسر. ثم يعصب عينَي باسم ليقوم هو أيضاً بذلك.

عندما انتهيا مِن اللعب والمزاح، رَنا إليه، عادت به الذاكرة ثلاثين سنة إلى الوراء ليرى ملامح طفولته في قسمات وجهه، تخيَّل ثلاثين سنة قادمة وقد أصبح باسم على هيأته الآن، هكذا في لحظةٍ واحدةٍ اتّحد الماضي البعيد مع المستقبل البعيد وهو ينظر إليه.

أدركَ بأنَّه مع وجود باسم في البيت، لم يعد شخصاً عاديّاً، بل تحوَّل إلى قدوة، عندما يرفع صوته في البيت، فإنّ هذا السلوك سوف يترسَّخ في ابنه، عندما يغسل يدَيه قبل الطعام، عندما يغسل أسنانه قبل النوم، عندما يحترم أبوَيه، أخوته، أوقات عمله. تخيَّل العين الناقدة للطفل، العين التي تُخزّن كل شيءٍ تراه. أجل عليكَ أن تبقى بمعنوياتٍ عالية يا أمين حتى في أكثر المواقف الصعبة، عليك أن تثبت لابنك كيف أنك تُقاوم ولا تخنع، كيف تبذل كل ما بوسعك حتى تؤمّن له احتياجاته بجهدك وكدّك.

عليكَ أن تُريه كيف أنكَ معتمدٌ على نفسك.

تذكَّر آخر كتاب أتمَّ قراءته منذ يومَين (رسالة إلى الوالد).

وهو يقرأ الكتاب كم أحسَّ أن ذاكرة الطفولة تتمتَّع بالقوَّة، ولا تكاد تنسى حتى أدق التفاصيل. كان يقرأ بذهولٍ وهو يكتشف أشياءً لم يكن منتبها إليها مِن قبل في علاقته

بابنه. ها هو الابن يكبر ويُصبح رجلاً، يلجأ إلى كتابة رسالة طويلة لأبيه، يعبّر فيها عمّا كان يشعر به نحوه وهو طفل: (لقد قلتُ فيها ما لا أستطيع أن أقوله وأنا على صدرك). يُرسل هذه الرسالة إلى أبيه، يصوّر فيها أدق تفاصيل الطفولة التي حفظَتها ذاكرتُه: (كان علينا ان نحترس من عدم سقوط الطعام على الأرض، لكن تحتك كانت معظم البقايا على المائدة، ولا يجوز الانشغال بغير الطعام، لكن أنت كنت تنظف وتقطع أظافرك، تبري أقلام الرصاص وتنظف أذنيك بنكاشة الأسنان، كان من شأن هذه الأمور ان تكون بحد ذاتها تفاصيل لا أهمية لها على الإطلاق، ولم تثقل على نفسي إلا لكونك أنت أنك أنت الإنسان القدوة بالنسبة لي، لم تكن نفسك لتحافظ على الوصايا التي فرضتها عليّ).

عندما أنهى قراءة الكتاب، قال لزوجته: القراءة نعمة يا أمّ باسم، لا يعرف قيمتها إلّا الذي يقرأ، ولا يجهل قيمتها إلّا الذي لا يقرأ. بعد لحظاتٍ استرسَل يقول: قبل أن أقرأ، لم أكن أعرف قيمتها، لكنَّني عندما بدأتُ أقرأ صرتُ أعرف قيمتها، الآن لم أندم على شيءٍ قدر ندمي على السنوات التي مضت من عمري ولم أقرأ فيها، الآن أُدرك كم مُنيتُ بخساراتٍ فادحة في تلك السنوات، لكن سأحاول قدر الإمكان أن أعوّض ما فاتني،

كما يقولون يا أم باسم: (أن تصل متأخّراً خيرٌ من أن لا تصل أبداً).

الفصل العاشر

حَدس تابسا

تناهَت أنفاسٌ مُتقطِّعة إلى سمع تابسا التي كانَت مستلقيةً في ركنها مغمضة العينَين تُحاول أن تنام.

أصاخت إلى الأنفاس بشكل مركَّز، فتحت عينَيها الناعستَين، هبَّت واقِفة على قوائِمها وسارعت بالخروج مِن البيت. كان الشارع خالياً من حركة الناس، أضحَت تُهرول مسترشدةً بالصوت الذي يتناهى إليها حتى وقفت أمام بابٍ موصدٍ. خبَّطت بيدَيها على الباب، وغدت تموء بصوتٍ مرتفعٍ جدّاً دون توقّف: مياوو.. مياوو.. مياووووو.. مياوووووو..

ترامى إلى سمعها وقع خطواتٍ من الداخل، تراجعت إلى الوراء، أصدر الباب صريراً وانفرج بتُؤَدةٍ، ظهر رجلٌ أربعيني بشعرٍ منكوش وعينَين غائرتَين، يرتدي بيجامة نوم رثّة ظانّاً بأنّ شخصاً ما يطرق عليه الباب في هذا الوقت المتأخّر من الليل.

عندما وقعت عيناه الغائرتان على القطَّة، حاول أن يطردها، لكنَّها استمرَّت في المواء وهي تصوّب نظراتها إليه وتُحاول الدخول رغماً عنه.

أحسَّ الرجل بهَلَعٍ، تقهقرَت به خطواتُه، وهي ما تزال تموء بقوَّةٍ: مياووو.. مياوووووو.. تقدَّمت إليه القطّة داخل البيت بموائِها وهو يتراجع إلى الوراء وقد اتَّسعت عيناه وفغر فاه.

صاح الرجل زوجته كي تستيقظ وترى معه أمر هذه القطَّة التي أتت في هذا الوقت المتأخّر مِن الليل تخبط على الباب كما يخبط الإنسان، واقتحمَت عليهم البيت بهذا الشكل الغريب.

فزعت المرأة من لفائق نومِها العميق على صوته المذعور من جهة، وعلى مواء القطَّة المُرتفع من جهةٍ أُخرى، عند ذاك فوجئَت بأنَّها كانت مستلقية على وجه طفلها والثدي في فمِه وأنّه بات على وشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة.

انفجرَت من حنجرتها صرخة مدوّية، التقطتْ الطفل، هرعت بِه إلى النافِذة، فتحتها على درفتَيها بسرعةٍ، لحق بِها الرجل كالمصعوق إلى النافِذة وصارا ينظران إلى الطفل الذي احتقن وجهه وبدا كما لو أنه أُخرِجَ للتو من قعر بئر. نزعت عنه القماط بيدَين مُرتجفتَين، عرضته لنسمات الهواء التي غدت تنفح وجهه من النافِذة، فأخذ يستردّ أنفاسه هنيهةً إثر هنيهة.

عند ذاك انتَبَها بأن القطَّة توارَت تماماً كما لو أنَّها لم تكن داخل البيت قبل لحظات بكل ذاك الضجيج الذي أحدَثَته، تقدَّم الرجل بخطواتٍ وئيدة إلى الباب الذي لبث مواراباً، خرج إلى الشارع، طفق يوزّع نظراته يَمنةً ويَسرةً، دون أن يعثر لها على أثر.

عاد إلى الداخل، أوصد الباب بالمزلاج وهو يتمتم في قرارة نفسه: هل أنا في حلم..؟ تلمَّس جسده وقال: ربما أكون بالفعل في حلم.

اتَّجه إلى زوجته التي ما تزال واقفةً أمام النافذة تمسح على وجه الطفل، تُهدهده وتدندن له. تذكَّرت تلك القطة الفضّية اللون التي تدخل البيت بين حينٍ وآخر، خاصّة عندما يكون الطعام لحماً، تذكَّرت كيف أنّها كانت تطردها. بدت كما لو أنّها تعتذر بينها وبين نفسها من القطّة، تخيَّلتْ دخولها مرَّةً أُخرى وأنّها تُقدّم لها قطعة لحم.

عندما رأته يقف بجانبها، قالَت بفمٍ ناشفٍ وريقٍ جاف: غداً عليك أن تشتري خروفاً وتوزّع لحمه على الفقراء. أردفت تقول وركبتاها تصطكّان من الهلع: اذهب إلى اللحام، اطلب منه أن يذبح لك خروفاً ويضع اللحم في أكياس، ثم خذه إلى سوق العمّال الكبير، فرّقه عليهم.

أومأ رأسه بالإيجاب، مدَّ يده هو الآخر إلى جبهة الطفل الذي نظر إليه وافتر ثغره عن بسمة.

في تلك اللحظات كانت القطَّةُ تؤوب إلى البيت بحذرٍ وهي تمضي مسرعةً بمُحاذاة جدران البيوت تحسّباً من هجوم أحد الكِلاب عليها، لدى وصولها إلى البيت استلقت في ركنها باسترخاءٍ وما لبثت أن أغمضَت عينَيها.

غيرة تابسا

كان باسم جالساً في غرفته يعزف على البيانو في عصر اليوم التالي عندما دخلت تابسا وقبعت على ذيلِها بالقرب منه.

لبث يعزف وهي صامتة تستمع، قال: بماذا تشعرين وأنتِ تستمعين إلى الموسيقى يا قطَّتي؟

قالت: أشعر بهدوء، وأدخل إلى حالةٍ غريبة لا أدخلها إلّا عندما أسمع الموسيقى.

قال: كل الموسيقى؟

قالت: لا، فقط الموسيقى الهادئة، الموسيقى الصاخبة تزعجني وأتهرَّب منها عندما أسمعها في بعض الأماكن.

وعندما تتناهى إلى سمعي موسيقى هادئة، أقف في ذاك المكان وأستمع.

ثم قالت بعد لحظاتٍ: وأنت يا باسم؟

قال: عندما أسمع الموسيقى، لا أعرف ماذا يصيبني، أشعر بإقبال على الحياة، بأهميّة أن أحافظ على نفسي، بألا أغضب أحداً. الموسيقى تنزع عن نفسي كل ذرة كراهية تجاه أحد. عندما أستمع إلى الموسيقى، أحب أبوَي أكثر، أحب دراستي أكثر، أحب الناس أكثر، وأحبكِ أكثر يا شيري. هناك مشاعر غريبة تبثها الموسيقى إليّ لا أعرف ما هي، لكنها مشاعر جميلة.

قالت: عندما عدتُ الآن إلى البيت، ورأيتك تعزف، لم أتمالك نفسي، فجئت كي أستمع.

قال: أينَ كنتِ؟

لم يسمع منها إجابةً، نظر إليها، رآها تبتسم، فقال: لماذا تبتسمين؟

قالَت: اليوم اصطدتُ حمامة.

توقَّفَ عَن العزف وقال: لماذا؟

قالت: أريد أن أعتمد على نفسي يا باسم لأنَّني لا أعرف ما الذي سيحصل. وأردفت تقول: علَّمتني أمّي الصيد وقالَت بأنّكِ على قدر ما تكونين ماهرةً في الصَيد، فإنَّكِ لن تجوعي. كانَت تأخذني معها وتعلّمني مهارات الصيد، كنتُ أنظر إليها كيف تستعدّ عندما كانت تُريد أن تصطاد حمامةً، ثم تأتي بها وتتَجه إلى إحدى الزوايا، وتقول لي: كلي يا بنَتي هذا يغنينا عَن فضلات الناس.

بعد ذلك درَّبتني كيف أصطاد عصفوراً لأنَّني كنتُ صغيرة، فاصطدته، وفرحَتْ أمّي كثيراً.

في تلك اللحظات وهو ينظر إليها تتحدَّث؛ تخيَّل نفسه يكبر، ويتخرَّج، ثم يعمل ويعتمد على نفسه.

انتفضت القطّة بغتةً، أصدرت مواءً غريباً وهرعَت بسرعةٍ إلى الخارج. بعد لحظات تعالى مواؤها وتداخلَ بمواء قطَّةٍ أُخرى. هرولَ باسم من الغُرفة وهرولَ أبواه عند سماع ذلك، فرأوا عراكاً شرساً يقع في الحديقة بين قطة البيت وقطة أُخرى.

حاول كل واحدٍ منهم بطريقته أن يفصل بينهما لكن دون جدوى،

عندما رأى باسم قطَّته تتعرَّض لهجماتٍ مِن القطَّة الأُخرى، لم يحتمل، فصرخ واتَّجه إليها، لكن أباه أمسك به قائِلاً: يبدو الشرُّ في عينَيها يا بُني، سوف تهجم عليك.

بدأت قطَّةُ البَيت أيضاً تشنّ هجماتها عليها، اشتدَّ بينهما العِراك في الحديقة.

بعد قليلٍ أخذت القطَّة الغريبة تتراجع إلى الوراء وتتوقَّف عَن الهجمات، لكن قطَّة البيت استمرَّت في هجماتها عليها حتى قفزت إلى الحائط ولاذت بالفرار.

عند ذاك وقفت القطّة بشموخ وهي تتبختَر وسط الحديقة بفرائِها المنفوش وتلعق شفتَيها بلسانِها، ثم مضت مسرعةً إلى البيت وعادت إلى موضعها الذي كانت قابعةً فيه في غرفة باسم، فلحقها باسم، وعند دخوله الغرفة قال لها: هل أنتِ بخير؟

قالَت: تلقيتُ بعض الإصابات منها، كانت شرسة.

قال وهو ينظر إلى آثار الرضوض والكدمات عليها: لماذا تعاركتما؟

قالَت: لا أريد أن تحلَّ قطَّة أُخرى محلّي في هذا البيت وتُصبح قطَّتك المُدلَّلة مثلي، لذلكَ جنَّ جنوني عندما سمعتها تنط إلى الحديقة.

الفهرس

الفصل الأول 5
هديَّة النجاح 5
اختفاء هاتف باسم 11
جرس الإنذار 17
الفصل الثاني 22
باسم وحيداً في البيت 22
باسم يتعلَّم لغة القطَط 29
الفصل الثالث 34
بعد العشاء 34
الاسم الحقيقي للقطّة 37
البيت الأول.. المدرسة الأولى 42
باسم وتابسا يأكلان السردين 43
باسم يطرق أبواب الجيران 48
تابسا تتشمَّس 50
الفصل الرابع 53
حساب الغفلة 53
مكانة الأبوَين 54
الفصل الخامس 58
نزلة برد على تابسا 58
تابسا عند الطبيب البيطري 63
تابسا تتماثل للشفاء 65
باسم يقرأ 69

الفصل السادس..... 71
مواء الإنذار 71
الفصل السابع..... 76
ليلةٌ ليلاء على تابسا..... 76
الفصل الثامن..... 81
باسم يذهب إلى القرية..... 81
رائحة باسم..... 87
إرضاء تابسا..... 90
الفصل التاسع..... 95
حمَّام تابسا..... 95
ذاكرة الطفولة 98
الفصل العاشر..... 103
حَدس تابسا..... 103
غيرة تابسا..... 106
الفهرس..... 110